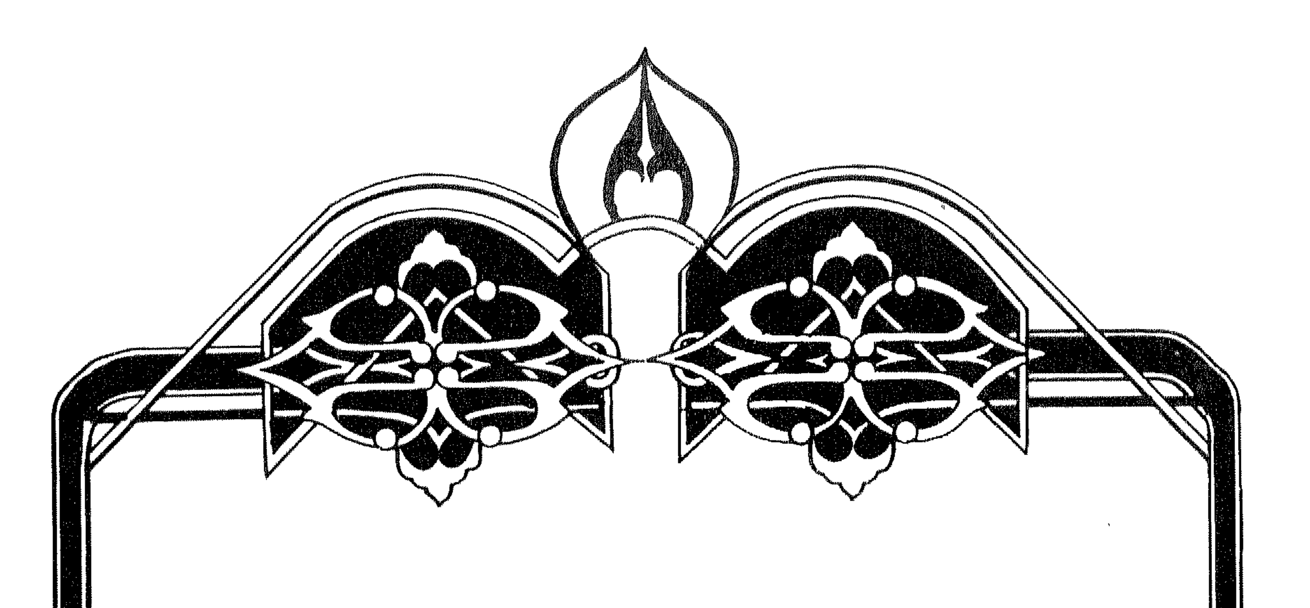
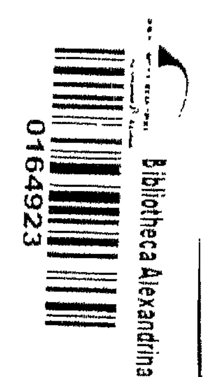


عبد القادر الجيلاني

باز الله الأشهب

تأليف

د. يوسف محمد طه زيدان



دار الجيل

بيروت

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

عبد القادر الجيلاني

باز الله الأشهب

تُراثُ القادِرِيَّة

(٢)

عبدُ القادِرِ الجيلانِي

بازُ اللهِ الأشْهَب

تأليف

د. يُوسُف محمَّد طه زيدان

دارُ الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

الإهـــداء...

إلــى شيــخي

مصطفى حلمي القادري

يوسف زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَهْلَ ٱلْأَرْضِ شَرْقاً وَغَرْباً.. وَيَا أَهْلَ ٱلسَّمَاءِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

أَنَا مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ..

أَنَا.. لُبٌّ بِلَا قِشْرٍ

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ ٱلْخَلْقِ

بُعْدُ مَا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ

فَلَا تَقِيسُونِي عَلَى أَحَدٍ..

وَلَا تَقِيسُوا أَحَداً عَلَيَّ

عبد القادر الجيلاني

---

(١) سورة النحل، آية ٨.

مقدمة

لم تهتم أمة بتاريخ رجالها، مثلما اهتمت أمة الإسلام. ولقد ظهر ذلك الاهتمام جلياً، في تلك القائمة الطويلة من كتب الطبقات وتراجم الرجال.. فبعضها يترجم لأعلام الرجال عبر عدة قرون، كما نجد في [سِيَر أعلام النبلاء] للذهبي؛ وبعضها يقتصر على تراجم أهل القرن الواحد، كما نجد في [الضوء اللامع بأعيان القرن التاسع] للسخاوي؛ وبعضها يخص طائفة معينة من الرجال، كما نجد في [الكواكب الدرية في مناقب الصوفية] للمناوي؛ وبعضها يترجم لشخصية واحدة، كما نجد في [الرحمة الغوثية في الترجمة اللَّيثية] لابن حَجَر.

ويبدو أن عناية علماء المسلمين بالسِّيَر والتراجم، قد انطلقت في الأساس من مقتضيات [علم الحديث النبوي] ثم تزايدت هذه العناية وتكثفت بفعل نشاط المؤرخين، مما خلف في النهاية هذا اللون الفريد من التأريخ الذي يمكن لنا أن نسميه: علم تاريخ الرجال.

والإمام، محيي الدين عبد القادر الجيلاني، من الرجال الذين توقفت عندهم كتابات المؤرخين، فخصَّه الكثيرون بترجمات مفردة تتبع أخباره وتفاصيل حياته وكراماته، وخصَّص له بقية المؤرخين مواضع في كتبهم، حتى

أننا لا نجد واحداً من كتب أعلام الرجال ووقائع الزمان، إلا وفيه ترجمة ـ قد تطول أو تقصر ـ للإمام الجيلاني.. وهذا ليس مقصوراً على مؤرخي التصوف فحسب، وإنما نراه أيضاً عند غيرهم من المؤرخين، مما يدل على المكانة المميزة التي يحتلها الإمام الجيلاني في تاريخ الإسلام.

* * *

والكتاب الذي بين أيدينا، يتناول شخصية الإمام الجيلاني وجوانب المنحنى الصوفي الذي مرَّ به.. وليس الغاية منه مجرد سرد وقائع حياة الإمام، وإنما نحاول عبر صفحاته مناقشة العديد من القضايا التي تطرحها شخصية الإمام الجيلاني أمام الباحث في التصوف.

وهذا الكتاب هو القسم الأول من المجموعة التي جعلناها بعنوان [تراث القادرية] وهي خلاصة سنوات من البحث، انتهت بحصولي على درجة الدكتوراه بموضوع يدور حول دراسة وتحقيق آثار الإمام الجيلاني وطريقته الصوفية. فهذا الكتاب هو أول المجموعة، ثم يأتي ثانيها بعنوان [الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر] وكلاهما يصدر عن دار الجيل ببيروت.. أما الثالث، فهو [ديوان عبد القادر الجيلاني: القصائد الصوفية، المقالات الرمزية] وهو تحقيق لمجموعة نصوص شعرية ونثرية، وقد صدر عن مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة؛ وربما نقوم بتحقيق مجالس الإمام المخطوطة [جلاء الخاطر في الظاهر والباطن] فتكون هذه المجموعة في جملتها؛ محاولة مخلصة للتعبير عن قدر الإمام الجيلاني ومكانته الصوفية، وما قدَّمه للتصوف والصوفية من مفاهيم، نراها لا تزال صالحة للأخذ بيد المسلم المعاصر، الراغب في تخطي الهوة الفاصلة بين الفناء والبقاء.. بين عالم الخلق وعالم الحق.

ولما كان من العسير أن نتحدث عن الإمام الجيلاني بغير إسراف، ولما

كـانت كل محـاولة لـوضع تصـورٍ تـامّ لشخصيـة الإمـام هي محـاولـةٌ متهمـةٌ بالتقصير. . فإننا سوف نُشير إلى حقائق حياته وتجربتـه الصوفيـة إجمالاً، مـع ذكـر هذه القـائمة المـطولة من التـرجمات المفـردة التي أطـالت وأسهبت في الحـديث عن الإمـام. . وإن كـان ذلـك لن يمنعنـا من التـوقُّف عنـد بعض التفاصيل التي من شأنها أن تسهم في فهم تصوفه.

والله الموفق

* * *

الفصل الأول

مفهوم التصوف

حين انتويت وضع فصلٍ تمهيديٍّ، يكون كالمدخلِ لفصول الكتاب، وقفت متردداً بين موضوعين.. الموضوع الأول [عصر الجيلاني] والموضوع الآخر [مفهوم التصوف] فكان الاختيار الآخر. فعلى الرغم من اعتياد أغلب الباحثين، أن يقدِّموا لدراسة الشخصيات بإلماحات عن العصر الذي عاشت فيه، فهم يعدُّون ذلك مدخلاً مهماً لفهم جوانب الشخصية التي يدرسونها ـ إذ كل إنسان صدى لعصره ـ فالعصر هو البوتقة التي تتم فيها تفاعلات الفرد مع الواقع.

ومع اتفاقنا مع القائلين بهذا الرأي، إلا أننا لم نوافق عليه تماماً فيما يخصُّ الشخصيات الصوفية. فالصوفي يبدو في حقيقة حاله، متجاوزاً للعصر الذي يعيش فيه! فالتجربة الصوفية لا تعترف في تطوراتها الروحية بأحكام الواقع والزمن الذي يحيا فيه صاحبها، فهي تجربةٌ مفارقة؛ تضع المعراج مقابل الواقع، والوقت مقابل الزمن.. وإذا كان للتصوف، كل بضعة قرون، مذاقٌ خاصٌ يميزه؛ فالمرجع في ذلك إلى تراكم التجارب الصوفية السابقة، وتراكم الثقافة التي يتم من خلالها التعبير عن تلك التجربة الذوقية الفريدة التي يمرُّ بها الصوفي في كل عصر؛ ولو كانت طبيعة العصور وحدها، مقياساً

لفهم التصوف، لما استطعنا تفسير تجربة وكتابات النِّفَّري [محمد بن عبد الجبار بن الحسن، صاحب المواقف والمخاطبات] فهو يبدو متجاوز للقرن الخامس الهجري الذي عاش فيه، وأكثر قرباً من ابن عربي الذي عاش في عصرٍ تالٍ. . لهذا، فقد رأينا أن إلقاء الضوء وحقيقته، ربما يكون أكثر فائدة ونحن بصدد الدخول إلى عالم الإمام عبد القادر الجيلاني. أما طبيعة العصر الذي عاش فيه، فلسوف نتعرض لها في سياق الحديث، ببضعة إشارات موجزة.

أصل التسمية:

أفرد مؤرخو التصوف ودارسوه فصولاً عديدة للبحث في أصل كلمة [التصوف] خلال مجموعة تعريفات ومفاهيم، تسعى في جملتها للكشف عن طبيعة هذه التسمية واشتقاقاتها ومصادرها. ودون الإسهاب في عرض (التعليلات) المتعدِّدة لكلمة التصوف، سوف نجملها فيما يلي:

* القول بكون التصوُّف مشتقاً من الصوف؛ الذي كان رداء الأنبياء والزُّهَّاد، والذي يدلُّ على التقشُّف.

* القول بكونه مشتقاً من الصفاء؛ لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات، ويؤهلها للترقي في طريق الأحوال والمقامات.

* القول بكونه مشتقاً من الكلمة اليونانية (سوفيا) وتعني الحكمة؛ باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلَهيين، الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة اللدنية.

* القول بكونه نسبةً إلى أهل الصُّفَّة؛ وهم جماعة من فقراء الصحابة، انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة، وكان النبي ﷺ لا ينكر عليهم ذلك.

* القول بكونه نسبةً إلى صوفة؛ وهي قبيلة يمنية، كانت تُجيز الحجيج وتخدم الكعبة، فصار الاسم علماً على الانقطاع لخدمة الله.

ومع ما تثيره هذه الأصول المتعددة للتسمية من نقاشٍ في كتب المؤرخين والدارسين[1]. فإن صاحب الحلية [أبو نعيم الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية] يضيف أصولاً أخرى للتسمية، تزيد من إثارة هذه القضية، فيقول: «واشتقاقه من حيث اللغة من أحد أربعة أشياء؛ من الصوفانة وهي بقلةٌ قصيرةٌ. أو من صوفة القفا وهي الشعرات النابتة في متأخره، أو من قبيلة صوفة، أو من الصوف المعروف»[2]..

وقد حدا ذلك الخلاف حول اسم التصوف ببعض الدارسين إلى مناقشات مطولة، أرهقت المفهوم الواضح للتصوف، وتكلَّفت تحميله ما لا يطيق، بهدف ترجيح أصلٍ من أصول التسمية على غيره.. وفي مقابل ذلك، استغنى بعض الباحثين المعاصرين عن اسم [التصوف] وراحوا يعرضون لمفاهيمه تحت أسماء أخرى: الطريق الروحي، الاتجاه الأخلاقي، الجانب الذوقي، الزهد.. وقد فعلوا ذلك تلافياً للخلاف حول طبيعة الاسم واشتقاقاته، وتجنُّباً للمفاهيم الخاطئة التي علقت به، وترضيةً لبعض البلدان التي تكره التصوف ولا تسمح بالحديث عنه ـ لأسبابٍ في جوهرها: سياسية.

عموماً، فنحن نرى الخلاف حول طبيعة اسم التصوف، خلافاً لا طائل تحته. فالأرجح عندنا ما قاله القُشيري من أن هذا الاسم لا يشهد له من حيث اللغة قياسٌ ولا اشتقاق، فالأظهر أنه كاللَّقب[3].. فلنطرح الخلاف حول

(١) راجع الفصول الخاصة بتسمية التصوف واشتقاقاته في المصادر والمراجع التالية:
التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي/ اللمع، للسراج الطوسي/ الرسالة، للقشيري/ كشف المحجوب، للهجويري/ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام [الجزء الثالث] للدكتور النشار/ المدخل إلى التصوف، للدكتور أبو الوفا التفتازاني.. وغير ذلك الكثير.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [دار الكتاب العربي ـ بيروت] المجلد الأول ص ١٧ وما بعدها.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية [طبعة الحلبي ـ ١٣٧٩ هجرية]، ص ١٣٨.

التسمية، ونتجاوزه إلى طبيعة التصوف ذاته، قائلين مع البُسْتي:

تَنَازَعَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلصُّوفِيِّ وَٱخْتَلَفُوا قِدَماً وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ ٱلصُّوفِ
وَلَسْتُ أَنْحِلُ هَذَا ٱلإِسْمَ غَيْرَ فتىً صَافَى فَصُوفِيَ حَتَّى لُقِّبَ ٱلصُّوفِي(١)

طبيعة التصوف وتعريفاته:

التصوف روحٌ إسلامية تتخلَّل سريرة العبد، فتحمل حركاته وسكناته على جناحيْ المحبة والإخلاص لله، وتظل ترقى به من أوهام الحياة الدنيوية إلى حقائق العيش الأبدي بقرب الحق تعالى. . ولا يمكن فهم التصوف، خارج إطار التجربة الدينية العميقة، فهو يتولَّد وينمو في القلب، وكأنه حرث التقوى بأرض العبادة. وربما يصطنع البعض تلك النزعة الصوفية في قوله وأفعاله، دون الالتزام بظاهر العبادات والمعاملات التي أمر بها الإسلام، فيكون حاله ـ كحالنا ـ غروراً وابتعاداً عن المفهوم الحقيقي للتصوف.

وباعتبار التصوف، شريعةً وحقيقةً. . فهو يقضي بالدخول إلى الحقائق من باب الشرع. فلكل دقيقةٍ شرعية، لطيفةٌ صوفية لا يتسنى للإنسان إدراكها وتذوقها، ما لم يوف الشريعة حقّها. . فمَنْ لم يفعل، فهو حاطب الليل الذي لا يأمن الأفاعي، فربما خدعته الأماني ـ كما خدعت كثيرين ـ فخرجت به عن مراده إلى ما لا يهواه. فطريق أهل الحقائق شائكٌ مملوءٌ بالمخاطر، ولولا التزوُّد بمصابيح الشرع وظاهر الشريعة، لانغرست في القلب الأشواك.

وهناك أنماطٌ من التصوف غير الإسلامي، كتصوف الهنود والرهبان والبوذيين. وقد تسمَّت هذه الأنماط تصوفاً، على أساس أن كلَّ تصوفٍ ـ كما يقول جُوته ـ علوٌّ وارتقاءٌ روحي عن المحسوس. لكن هذا التوسُّع اللفظي لكلمة التصوف، حتى تشتمل اللفظة على متقشفي الديانات الأخرى

---

(١) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة [عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الثانية]، ص ٢٨.

وزُهَّادها، توسُّعٌ من شأنه التضليل والتعمية. . فالأصوب أن يقتصر استخدام اللفظ، على ذلك الاتجاه الذي رسمه أئمة المسلمين؛ فما دام التصوف شريعة وحقيقة، فكلاهما داخلٌ في إطار الإسلام. أما ما عدا ذلك من نزعات روحية وتزهدية في الأديان الأخرى، فهو يقوم على اعتقادات لا يعترف بها الدين الإسلامي، كفكرة (النرفانا) عند الهنود، وعقيدة (التجسُّد) في التراث المسيحي، وغير ذلك من العقائد التي تنطلق منها النزعات الروحية عند أهل الملل والأديان. . ولا تتفق مع (الشريعة) الإسلامية.

ويمكننا تحديد مفهوم التصوف [الإسلامي] من خلال هذه المجموعة المختارة من تعريفات التصوف التي ترسم الملامح الأساسية لذلك النزوع الروحي. . فمن هذه التعريفات التي يحشدها القشيري في الرسالة، قول معروف الكرخي:[1] «ٱلتَّصَوُّفُ، ٱلأَخْذُ بِٱلحَقَائِقِ وَٱليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي ٱلخَلَائِقِ». . فلنُبْحِر في أعماق هذا التعريف:

للأشياء على الحقيقة، ظاهرٌ وباطن. وغالباً ما يكون الظاهر من الأشياء مخادعاً وباطلاً! ففي أتفه الأشياء، تبدو لنا الظواهر في قالبٍ باطلٍ يحجب الحقيقة؛ فهذه المواد التي تملأ من حولنا الوجود، تبدو في الظاهر ساكنة الأجزاء جامدة الذرات، وهي في حقيقة أمرها كتلة هائجة تموج بالحركة الدائبة والتوتر ﴿وَتَرَى ٱلجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مرَّ السَّحَابِ﴾[2] وهي لا تنتهي عند ذلك القدر الجزئي الذي يبدو في ظاهرها الساكن. . فقد رأينا

---

(١) هو عَلَم الزُّهَّاد: أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، المتوفى سنة ٢٠٠ هجرية، راجع ترجمته في:
طبقات الصوفية ص ٢١ ـ حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠ ـ الرسالة القشيرية ١/ ٧٩ ـ تاريخ بغداد ٣/ ١٩٩ ـ صفة الصفوة ٢/ ٧٩ ـ طبقات الحنابلة ١/ ٣٨١ ـ وفيات الأعيان ٥/ ٢٣١ ـ العبر ١/ ٣٣٥ ـ سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩ ـ دول الإسلام ١/ ١٢٦ ـ مرآة الجنان ١/ ٤٦٠ ـ طبقات الأولياء ٢٨٠ ـ شذرات الذهب ١/ ٣٦٠.
(٢) سورة النمل، آية ٨٨.

الأجزاء تنقسم، والذرات تنشطر، حتى أطلَّ الهول. ومن ناحية أخرى، فهؤلاء البشر من حولنا، يغدون ويروحون بملامح وأردية وبسمات ودموع، ربما لا تُنبئ عما تحت طيَّات الملامح من حقائق. وقد نطَّلع على بواطن أشدِّ الناس تأنُّقاً وأحلاهم وجهاً، فنمتلئ من تلك البواطن رعباً، وربما ولَّيْنَا منهم فراراً. القضية إذن: ظاهرٌ وباطن، أشكالٌ وحقائق.

وفي أمور التعبُّد محوران، الأول محور الشكل الظاهر من العبادة، وإطاره الحركات والسكنات. والمحور الثاني، ذلك المعنى الباطن من العبادة، حيث انفعال القلب بتلك الحركات والسكنات، ودخوله عالم الأسرار الكامنة خلف الشكل الظاهر من العبادة.. وإلى هذا يشير النصف الأول من تعريف معروف الكرخي (التصوف الأخذ بالحقائق) فالتصوف غوصٌ دائمٌ وراء ما يحتجب وراء الأشكال التعبُّدية الظاهرة. وما دام ذلك الغوص متوالياً، فلا تزال حقائق التعبُّد متواترة، حتى تتكشَّف لبصيرة الصوفي أسرار الحقائق، وهنا يعترضنا السؤال: هل تنوب الحقائق الباطنة عن الأشكال الظاهرة من العبادة؟ وهل تغني الحقيقة عن الشريعة؟ وهل يمكن إسقاط تلك التكاليف الشرعية؟.. على ذلك يجيب أئمة التصوف بالنفي القاطع، فليس ثمة ولوج إلى الحقائق إلَّا من باب الظواهر، ولو انغلق الباب لاستحال الولوج والكشف. وهنا أمرٌ دقيقٌ وخطيرٌ، أفصح عنه الحلَّاج حين سُئل سؤالاً خبيثاً عن مذهب الباطن؛ قال الحلاج:

> **بَاطِنُ ٱلبَاطِلِ أَمْ بَاطِنُ ٱلحَقِّ؟ أَمَّا بَاطِنُ ٱلبَاطِلِ فَظَاهِرُهُ أَقْبَحُ مِنْ بَاطِنِهِ، وَبَاطِنُهُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرِهِ. وَأَمَّا بَاطِنُ ٱلحَقِّ، فَظَاهِرُهُ ٱلشَّرِيعَةُ، فَمَنْ عَمَلَ بِظَاهِرِهَا، ٱنْكَشَفَ لَهُ بَاطِنُهَا**[1].

فالتصوف على هذا النحو، أخذٌ بالحقائق من مأخذها الصحيح. وهو أيضاً

---

(١) الحلاج: أخبار الحلاج، نشرة ماسينون وكراوس (باريس ١٩٣٦)، ص ١٩.

ـ كما يَرِدُ في الشِّقِّ الثاني من التعريف ـ يأسٌ مما في أيدي الخلائق. . وهنا إشارة إلى الفرق بين ما هو بيد الناس، وما هو بيد الله. الناس بأيديهم الوهم والزوال والمادة، والله بيده مقاليد كل شيءٍ باقٍ وحقيقيٍّ ودائمٍ؛ الخلائق لا يملكون إلا ما يناسب حقيقتهم الفانية، والله يملك ما يليق بجلاله.

فلما كان التصوف يرمي بالقشر ويأخذ اللُّبَّ، ويتجاوز تلك الأشكال والرسوم إلى نخاعها؛ فهو يأسٌ مما في أيدي الخلائق، وتعلُّق بما في قدرة الله.

وثمة تعريفٌ للشِّبْلي[1] يقول فيه: «التَّصَوُّفُ، الْجُلُوسُ مَعَ اللَّهِ بِلَا هَمٍّ». . وكأنما الشِّبْلي يستكمل تعريف معروف، ويفصح عن بعض جوانبه. فما دام التصوف وصولاً للحقائق وخلاصاً من انشغال الخليقة والخلائق، فهو سقوط الهموم الدنيوية من القلب، وعكوف العبد على أوامر الله ونواهيه. وليس هناك ما يعوق امتثال الأمر واجتناب النهي، إلا هموم العبد وأوهامه الباطلة وتدبيره الرخيص؛ فإن خلص العبد من ذلك، جلس مع الله بلا هَمٍّ ولا انشغالٍ بالسوى.

ومن الجليّ أن قول الشِّبْلي [الجلوس مع الله] لا يُراد به أية معانٍ حِسِّية. فهذا الجلوس، اصطلاحٌ صوفيٌّ يشير إلى دوام الطاعة لله؛ فكلما تعمَّقت طاعةُ العبد وصدقت، كلما ازداد قُرباً من ربه، وجلس بين يدي مولاه على بساط الامتثال لأوامره ونواهيه.

وإسقاطُ الهَمِّ من القلب، يكون من وجوهٍ كثيرةٍ. أولها إسقاطُ هَمِّ

---

(١) هو شيخ الطائفة: أبو بكر جعفر بن دُلَف بن جحدر الشبلي، المتوفى سنة ٣٣٤ هجرية. راجع ترجمته في:
طبقات الصوفية ٨٢ ـ حلية الأولياء ١٠/٣٦٦ ـ تاريخ بغداد ١٤/٣٨٩ ـ الرسالة القشيرية ٢٥ ـ المنتظم ٦/٣٤٧ ـ وفيات الأعيان ٢/٢٧٣ ـ العبر ٢/٢٤٠ ـ مرآة الجنان ٢/٣١٧ ـ سير أعلام النبلاء ١٥/٣٦٧ ـ البداية والنهاية ١١/٢١٥ ـ النجوم الزاهرة ٣/٢٨٩ ـ شذرات الذهب ٢/٣٣٨ ـ ديوان الشبلي، تحقيق د. كامل الشيبي.

الغَد، وذلك هو التوكُّل في مفهومه الصوفي العميق، فالصوفية يقولون بالهِمَّة والعمل، لكنهم يحذِّرون من المُنْية والأمل، خوفاً من سيطرة الأماني والآمال على العبد، حتى تربطه بوجوده الحِسِّي.. لذا، نجد بعضهم لا يسمحون للصوفي بتأميل الحياة على الأرض لأكثر من أربعين يوماً، وبعضهم يُقصِّر الأمل في العمر إلى ثلاثة أيام، والبعض لا يأملون إلَّا في الوقت الحالِّ فقط، بلا تأميل للحظة التالية.. وهذا، قمة إسقاط هَمِّ الغد، ومنتهى تفريغ القلب لله تعالى.

والوجه الثاني لإسقاط الهَمِّ، يكون بيقين الصوفي في أن ما يملكه زائلٌ لا محالة، فالتعلق بالزائل حمقٌ ورعونةٌ. وذلك لا يعني أن الفقر ـ بمفهومه الشائع ـ هو شرطٌ من شروط التصوف؛ فالمراد هنا: أن يملك الصوفي الأشياء، ولا تملكه! وعندما جاء بعض مريدي الإمام الجيلاني يشكون إليه إقبال الدنيا عليهم، وكثرة المتاع الدنيوي، قال لهم: «اجعلوا ذلك في أيديكم، وليس في قلوبكم؛ فلا يضركم».

ووجهٌ ثالث لإسقاطِ الهَمِّ، وهو وجهٌ دقيقٌ لا يصل لمعناه إلَّا المحقِّقون من الصوفية.. ونعني به: إسقاطُ هَمِّ الآخرة. فالصوفي يتجاوز الرغبة في الجنة والخشية من النار، إلى الرغبة في الارتقاء إلى مقام المحبة. وهنا تكون كل أفعال العبد إرضاءً للحبيب عز وجل، لا طمعاً في جنَّته، ولا خوفاً من ناره. وإلى هذا، كانت إشارات رابعة العدوية بقولها إنها: ما عبدته خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، فأكون كأجير السوء ـ إن عمل طلب الأجر ـ وإنما عبدته حباً فيه وتقرُّباً إليه[1].. ومن البدهي أن إيمان المُحبِّ وعمله، مرتبةٌ أرقى من مرتبة الخائف الراجي.

على هذا النحو السابق، تسقط هموم الدنيا والآخرة من عين قلب

---

(١) عبارة مشهورة لرابعة، ذكرتها معظم المصادر التاريخية التي أرَّخت لها.

العبـد، ولا تبقى في القلب ذرَّةٌ إلا وهي عـامـرةٌ بحبِّ الله، وبهـذا يكـون: الجلوس مع الله بلا هَمٍّ.

والتعريف الأخير الذي نورده هنا[1]، لأبي بكر الكتاني[2] الذي يقول: «ٱلتَّصَوُّفُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي ٱلْخُلُقِ، فَقَدْ زَادَ عَلَيْكَ فِي ٱلصَّفَـاءِ».. وهنا لا بد من إيضاح:

للتصوف جانبـان أساسيـان، الأول يتمثل في الـرابطة بين العبـد وربه، والثاني يتجلى في العلاقة بين الصوفي وسائر الخلائق. وإذا تأملنا التعريفـات الثلاثة في مجملها، لرأيناها تفصح عن هذين الجانبين. لكن التعريف الثالث الأخيـر، يركِّـز بشكلٍ خـاصٍّ على المفهوم الأخـلاقي في جانبيْ التصـوف؛ فهناك الخُلُق مع الخالق، وهناك الخُلُق مع الخَلْق.

وللصـوفي مع ربـه أخلاق، لعـل أهمها الحيـاء.. فـإذا كـان الحـديث النبوي يخاطب عموم المسلمين بأن يستحي الواحد منهم من ربه كما يستحي من صالح جيرانه[3].. فإذا كان الأمر كذلـك بخصوص عمـوم المسلمين، فما بال الأمر بذلك الصوفي الذي تتجلى عليـه الأنوار الإلٰهيـة آناء الليـل وأوقات النهـار، لا بد إذن من أن يكـون حيـاؤه من الله أعـظم، وهـو الـذي يعبـد الله [كأنه] يراه.. وعلى هذه النظرة، تجري بقية أخلاقيات الصوفي مع ربه.

---

(١) راجع التعريفات المختلفة للتصوف، في الفصول المخصصة لذلك بالمراجع الآتيـة: الرسـالة القشيـرية ـ التعـرف لمذهب أهـل التصـوف، للكـلابـاذي ـ عـوارف المعـارف للسهـروردي ـ المدخل إلى التصوف الإسلامي للدكتور التفتازاني.

(٢) هو سراج الحـرم: أبو بكـر محمد بن عليّ بن جعفـر الكتاني، مـات مجاوراً بمكـة سنة ٣٢٢ هجرية. راجع ترجمته في:
طبقات الصوفية ٩١ ـ حلية الأولياء ٣٥٧/١٠ ـ تاريخ بغداد ٧٤/٣ ـ الـرسالـة القشيريـة ٢٦ ـ صفـة الصفـوة ٢٥٧/٢ ـ العبـر ١٩٤/٢ ـ الـوافي ١١١/٤ ـ سير أعـلام النبـلاء ٥٣٣/١٤ ـ طبقات الأولياء ١٤٤ ـ النجوم الزاهرة ٢٤٨/٣ ـ شذرات الذهب ٢٩٦/٢.

(٣) أخرجه السيوطي بلفظ قريب عن أبي إمامة، انظر: الجامع الصغير رقم ٩٧١ ـ جمع الجوامـع رقم ٣٠٦٣/٢٤.

وللصوفي مع الخلائق أخلاقٌ تستكمل الجانب الآخر من التجربة الصوفية الصادقة. . فهو يخالق الناس بتلك الأخلاق الإلّهية، التي ورد في شأنها قوله ﷺ: «إنَّ لِلَّهِ مِائَةَ خُلُقٍ، وَسَبْعَةَ عَشَرَ خُلُقاً، مَنْ جَاءَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا دَخَلَ ٱلجَنَّةَ»[1]. فالصوفي إذا ما سقطت عنه أوصاف العبودية من جهلٍ وطيشٍ وحرصٍ، وغير ذلك من الصفات المذمومة، تتحلّى نفسه بالأخلاق الربانية الكريمة كالحلم والكرم والرحمة. . ويظل الصوفي ـ في تعامله مع أهل زمانه ـ سابحاً في فلك هذه الصفات المحمودة، فلا يصل بها إلى منتهى، وإنما يظل يترقى في كل خُلُقٍ منها، بحسب صدق تجربته الصوفية.

التصوف عند الجيلاني:

سُئل الإمام الجيلاني عن التصوف، فقال: «الصوفي مَنْ جعل ضالته مُراد الحق منه، ورفض الدنيا وراءه، فخدمته ورزقته أقسامه؛ وحصل له في الدنيا قبل الآخرة مرامه، فعليه من ربه سلامه»[2]. .

وفي إجابة الإمام تتحدَّد الخطوط العامة للتصوف، فالخط الأول هو (العبادة) التي أرادها الحق تعالى من عباده في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]. . ثم يشير الإمام إلى (ترك الدنيا) ورفضها، حتى تحصل الغاية من الخلق؛ فقد خلق الله الدنيا لتخدم الإنسان، لا لكي يخدمها هو ويلهث وراءها. وبعد ذلك تكون علامة الصوفي الصادق؛ حصول المرام في الدنيا (الرضا) وفي الآخرة (القرب من الله) وها هو سلام الله يتنزل عليه.

ويختتم الإمام كتابه (الغنية) بفصلٍ في التصوف، يزيد فيه الأمر

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو يعلى في مسنده، والبخاري في الصحيح عن عثمان بن عفان، والسيوطي في الجامع الصغير.

(٢) الشنطوفي: بهجة الأسرار، ص ١٢٣.

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٦.

توضيحاً وتفصيلاً. فيقول: [1] المتصوف هو الذي يتكلَّف أن يكون صوفياً، ويتوصل بجهده إلى أن يكون صوفياً. والصوفي مأخوذٌ من المصافاة، يعني عبداً صافاه الحق عز وجل، ولهذا قيل: الصوفي مَنْ كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد المذاهب ملازماً للحقائق، غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق..

ثم يعرض الإمام للفرق بين المتصوف والصوفي، فيورد الكثير من خصائص وصفات كُلٍّ منهما: المتصوف المبتدي والصوفي المنتهي، المتصوف الشارع في طريق الوصل والصوفي مَنْ قطع الطريق، المتصوف متحمِّل والصوفي محمول؛ حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف، حتى ذابت نفسه وزال هواه وتلاشت إرادته، فصار صافياً، فسُمي صوفياً.

ويستند الإمام في تعريفه للتصوف والصوفي، إلى العديد من الآيات والأحاديث النبوية، ومنها ذلك الحديث القدسي الذي قال عنه ابن تيمية إنه أصحُّ الأحاديث التي يستدلُّ بها أهل الولاية عليها، وهو قوله تعالى: «ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء فرائضي، وإنه ليتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل».

ويشير الإمام ـ إجمالاً ـ إلى المراتب التي يقطعها الصوفي في سيره إلى الله؛ فأولها مكابدة النفس والهوى والشيطان، ثم التعبُّد وتصفية الباطن، ثم الخروج عن زخرف الأكوان، والتجوهر لرب الأنام والرضا بقضائه.. يقول الإمام الجيلاني: «ثم يُفتح باب القربى إلى المليك الديَّان، ثم يُرفع (الصوفي) منه إلى مجالس الأنس، ثم يجلس على كرسي التوحيد، ثم تُرفع عنه الحُجُب ويدخل دار الفردانية، ويُكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا وقع

---

(1) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق تعالى (طبعة الحلبي) ٢/١٦٠ وما بعدها.

بصره على الجلال والعظمة؛ بقيَ بلا هو، فانياً عن نفسه وصفاته، عن حوله وقوته وحركته وإرادته ومُناه ودُنياه وأُخراه، فيصير كإناء بلّورٍ مملوءٍ ماءً صافياً. فحينئذٍ يُسمى صوفياً، على معنى أنه يصفَّى من التكدُّر بالخليقة والبريَّات، وإن شئتَ سمَّيته بَدَلاً من الأبدال، وعيناً من الأعيان، عارفاً بنفسه وربه»! تلك هي - على الإجمال - مراتب الطريق الصوفي، أما تفصيل مراحل هذا الطريق، فقد تناولناه في الكتاب الثاني من هذه المجموعة القادرية[1]..

والآن، فلنختتم هذا الفصل بتلك العبارات الرمزية التي وصف فيها الإمام حقيقة الصوفي بقوله:

هُوَ مَحْمُولُ ٱلقَدَرِ، كُرَةُ ٱلمَشِيئَةِ، مُرَبَّى ٱلقُدُسِ، مَنْبَعُ ٱلعُلُومِ وَٱلحِكَمِ، بَيْتُ ٱلأَمْنِ وَٱلفَوْزِ، كَهْفُ ٱلأَوْلِيَاءِ وَٱلأَبْدَالِ.. عَيْنُ ٱلقِلَادَةِ، دُرَّةُ ٱلتَّاجِ، مَنْظَرُ ٱلرَّبِّ.

(١) د. يوسف زيدان: الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت) ص ١٥ وما بعدها.

نشأة الجيلاني

اسمه وألقابه:

وفقاً لما اتفقت عليه المصادر الخاصة بالإمام الجيلاني، فهو: محيي الدين أبو محمد[1] عبد القادر الجيلاني الحَسَن الحُسيني الصِّدِّيقي[2]، ابن أبي صالح[3] موسى چنكي دوست، بن الإمام عبد الله[4]، بن يحيى الزاهد، بن محمد، بن داود، بن موسى الجون[5]، بن عبد الله المحض[6]، بن الحسن المثنى، بن الحسن السِّبْط، بن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة [دار الكتب المصرية ١٩٣٥] الجزء الخامس ص ٣٧١.

(٢) نسبةً إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويمكن الرجوع فيما يتعلق باتصال نسب الجيلاني بأبي بكر الصديق إلى [الشيخ عبد القادر الجيلاني، ليونس السامرائي - مطبعة الأمة، بغداد - ص ٦] أما نسبة الإمام إلى بيت النبوة، فسوف نتعرض لها في الصفحات التالية.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ [المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة] الجزء التاسع، ص ٩٤.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب [مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ] الجزء الرابع، ص ١٩٩.

(٥) الجون في اللغة من أسماء الأضداد، فالجون هو الجمع بين الأسود والأبيض [انظر؛ لسان العرب لابن منظور، بيروت، المجلد الأول، ص ٥٣٧] وقد كان موسى بن عبد الله، آدم اللون. . واشتهر أن أمه كانت تُدلِّله بقولها:

إنَّكَ إنْ تَكُونُ جَوْناً أنْزَعَا   تُوشِكُ أنْ تَسُودَهُمْ وَتَبْرَعَا

(٦) المحض في اللغة هو الخالص من كل شيء، وقد لُقِّب الإمام عبد الله بهذا اللقب لأن نسبه =

أما عن ألقاب الإمام الجيلاني، فهناك جملة منها اشتهر بها في حياته، بالإضافة إلى ما خلعه عليه أتباعه من ألقابٍ بعد وفاته. ومن خلال النظر إلى هذه الألقاب، يمكن لنا أن نستكشف العديد من جوانب حياة الإمام وشخصيته وتجربته الصوفية.

وأول هذه الألقاب هو [الجيلاني] أو [الكيلاني] وهي نسبة لموطن مولده (جيلان) وقد عُرف الإمام عبد القادر بهذا اللقب بعد نزوله بغداد، أما في جيلان فكان يُعرف بلقبٍ آخر هو [سِبْط أبي عبد الله] وهو لقبٌ خُلع عليه هناك، لأن جده لأمه: الشيخ أبي عبد الله الصومعيّ الزاهد، هو الذي تولى تربيته. وقد كان الصومعيّ الزاهد من كبار مشايخ جيلان في وقته، وكانت له مكانة روحية متميزة، حتى أن صاحب [البهجة] ينسب له عدة كرامات، يرويها بالإسناد المعنعن المتصل[1].

وقد انتسب إلى جيلان[2] ما لا يحصى من أهل المعرفة في كل فن، فمنهم أبو علي كوشيار بن لياليروز الجيلي الفلكي، وأبو منصور بن جعفر الجيلي فقيه الشافعية، وأبو الفضل أحمد بن صالح الجيلي الحافظ.. وكثيرون غيرهم[3]. أما في التصوف، فقد انتسب إليها اثنان من أشهر أعلامه: الإمام عبد القادر الجيلاني، الشيخ عبد الكريم الجيلي.

= من جهة الأب والأم خالص من الموالي، فأبوه هو الحسن بن الحسن بن علي، وأمه هي فاطمة بنت الحسين بن علي.

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار [طبعة البابي الحلبي - القاهرة ١٣٣٠ هـ] ص ٨٨، ٨٩.

(٢) جيلان: مجموعة من القرى الفارسية المتناثرة في مروج الجبال الواقعة وراء طبرستان.. انظر؛ معجم البلدان لياقوت الحموي [دار صادر - بيروت] المجلد الثاني، ص ٢٠١.

(٣) ابن حجر: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه [الهيئة المصرية العامة] القسم الأول، ص ٢٩٥. وقد درج المؤرخون والجمهور على تسمية من انتسب لجيلان بالجيلاني أو الجيلي.. لكن هناك من يفرِّق بينهما باعتبار أنه إذا انتسب الرجل إلى جيلان نفسها، يقال له (جيلاني) وإذا انتسب لأحدٍ من رجالها، دون أن يكون قد وُلد بها، يُقال له (جيلي) والعجم يقولون لكليهما: كيلاني.. انظر؛ فوات الوفيات لابن شاكر [مكتبة النهضة بمصر] الجزء الرابع، ص ٢.

أما أشهر ألقاب الإمام الجيلاني فهو [باز الله الأشهب] ويبدو أن الإمام كان يؤثر هذا اللقب، فقد لقَّب نفسه به في أبيات شعرية عديدة، منها قوله:

أَنَا بُلْبُلُ ٱلأَفْرَاحِ أَمْلأُ دَوْحَهَا طَرَباً وَفِي ٱلعَلْيَاءِ بَازٌ أَشْهَبُ[1]

كما لقَّبه بهذا اللقب معاصروه، ففي بعض أبيات أبي مظفر منصور بن المبارك الواعظ - من معاصري الجيلاني - يقول له:

يَا مَنْ بِأَلْفَاظِهِ تَغْلُو ٱليَوَاقِيتُ بِكَ ٱلشُّهُورُ تُهَنِّي وَٱلمَوَاقِيتُ

وَسَائِرُ ٱلنَّاسِ فِي عَيْنِي فَوَاخِيتُ ٱلبَازُ أَنْتَ فَإِنْ تَفْخَرْ فَلاَ عَجَبُ[2]

والباز لفظةٌ مشتقةٌ من (البَزْوان) وهو الوثب، وأفصح لغاته (بَازِي) المخففة، وهو اسمٌ لطائر يصيد الصقور، يعدُّ من أشد المخلوقات تكبراً وأحرِّها مزاجاً، ويُضرب به المثل في نهاية الطيران[3].. ولوجه اشتهار الإمام بهذا اللقب حكايةٌ غريبة، نرجئ الحديث عنها إلى الفصل التالي حيث نتناول قضية (الجذبة الروحية) في المنحنى الشخصي لحياة الإمام.

ومن ألقاب الإمام لقبٌ أثيرٌ لدى القادرية، يدعون به شيخهم قائلين: شيخ الكل.. وهو مأخوذٌ في الغالب من عبارة خطيرة قالها الإمام بلسان الولاية في بسط الفتوة، ليفصح بها عن حالٍ عالٍ عاينه، فقال:

الإِنْسُ لَهُمْ مَشَايِخُ
وَٱلجِنُّ لَهُمْ مَشَايِخُ
وَأَنَا شَيْخُ ٱلكُلِّ[4].

---

(١) الجيلاني: قصيدة ما في المناهل [ديوان عبد القادر الجيلاني] البيت السابع.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٨٢.

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى [دار إحياء التراث العربي - بيروت] الجزء الأول، ص ٩٩.
والفاختة؛ نوع من الحمام البري - والجمع (فواخت) وليس (فواخيت) التي جاء بها الشاعر هنا لضرورة الشعر.

(٤) كتاب المناقب (مخطوط المعهد الأحمدي بطنطا، رقم ١٢٦/٦٨٣) لمؤلف مجهول، ورقة ٧ ب.

وعلى الرغم من تصفَّحنا للعديد من تراجم أولياء التصوف ومآثر أقوالهم ومؤلفاتهم، فإننا لم نَرَ واحداً منهم يصرِّح بمثل هذا القول المتفجِّر بالعظمة. فحتى أولئك الذين عدُّوا أنفسهم ـ وعدَّهم الصوفية ـ أقطاباً لعصورهم، لم يجرؤوا على القول بأنهم القدوة المثلى والنموذج الأتم. . لا للبشر فحسب، وإنما أيضاً للجن؛ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء.

وهناك ألقابٌ أخرى، تتصل بمكانة الإمام الروحية، هي في الأغلب من وضع الأتباع والمريدين. . منها: الغوث[1]، الغوث الأعظم، غوث الثقلين[2]، مؤيد الأئمة، القطب الرباني، سيد الطوائف[3]، مُقتدي الأولياء، عَلَم الهدى[4]. . أما ابن تيمية ـ أشهر أعداء المتصوفة ـ فيدعو الإمام بلقب: شيخ الإسلام[5]. إلا أن هذه الألقاب الأخيرة لا يتفرَّد بها الإمام الجيلاني، وإنما تُخلع أيضاً على غيره من كبار الصوفية.

ويُعرف الإمام بمُحيي الدين؛ وهي كُنيةٌ تسبق دوماً اسمه، جعلناها آخر ما نتناوله من الألقاب، لما تكشف عنه من إغراق بعض القادرية المتأخرين في صناعة الأسطورة لشيوخهم. ففي تعليل الشطنوفي [علي بن يوسف بن جرير اللخمي، المتوفى سنة ٧١٣ هجرية] لهذا اللقب، يقول ما نصه:

«أخبرنا أبو محمد الداري بالقاهرة سنة سبعين وستمائة قال أخبرنا. .

---

* وقد رُويت هذه العبارة بألفاظ قريبة وأسانيد مختلفة في: بهجة الأسرار ص ٢٣ ـ قلائد الجواهر ص ٣٣ ـ خلاصة المفاخر (مخطوط) ورقة ٩٥ أ.

(١) للإمام الجيلاني مقالة رمزية فريدة بعنوان (الغوثية) حقَّقناها في القسم الثاني من ديوان عبد القادر الجيلاني.

(٢) ميرزا علي مدرس: ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب (بالفارسية) تبريز ـ چنچانه سفق، جلد بنجم، ص ٢٥٢.

(٣) فتوح الغيب، ص ٣.

(٤) بهجة الأسرار، ص ٢.

(٥) لابن تيمية موقفٌ خاصٌ من الإمام الجيلاني، يتسم بالكثير من الاحترام. . انظر ما سنقوله عن شرح ابن تيمية لكتاب الجيلاني (فتوح الغيب) في الفصل الخاص بمؤلفات الإمام الجيلاني.

قال أخبرنا الشيخان أبو السعود الحريمي المعروف بالمدلّل، أبو عبد الله محمد بن قائد الأواني.. قيل لشيخنا ونحن عنده: ما سبب تسميتك بمُحيي الدين؟ قال: رجعت من سياحاتي مرة في يوم الجمعة في سنة إحدى عشرة وخمسمائة إلى بغداد حافياً، فمررت بشخصٍ مريضٍ متغيِّر اللون نحيف البدن، فقال لي: السلام عليك يا عبد القادر. فرددت عليه السلام، فقال: ادن مني. فدنوت منه، فقال لي: أجلسني. فأجلسته؛ فنما جسده، وحسُنت صورته، وصفا لونه.. فخِفْت منه، فقال: أتعرفني؟ فقلت: لا، قال: «أنا الدين، وكنت قد دثرتُ كما رأيتني، وقد أحياني الله تعالى بك، وأنت محيي الدين!» فتركته وانصرفت إلى الجامع، فلما قُضيت الصلاة، أُهرع الناس إليّ يقبِّلون يدي ويقولون يا محيي الدين؛ وما دُعيتُ به من قبل»[1].

هكذا يصرُّ الشطنوفي، وغيره ممَنْ ترجموا للإمام، على إحاطته بهالةٍ أسطورية حتى في أدق تفاصيل حياته وكُنيته. وقد كانت [بهجة الأسرار] مَعْرضاً لهذا التصور المُفارق للواقع، وهو ما نراه أيضاً في [خلاصة المفاخر] لليافعي. فكلاهما يُغْرق في بحرٍ تمتزج فيه الخرافة بالكرامة، على نحوٍ يفتح الطريق ويمهِّده أمام الهجوم على التصوف والمتصوفة.. وذلك ما سنعاود الحديث عنه عند تناول كرامات الإمام، لكننا الآن نود أن نقف وقفة نقدية عند حكاية الشطنوفي السابقة، لنرى ما تطرحه من حقائق وقضايا يمكن حصرها فيما يلي:

أولاً: حرص الشطنوفي ـ أشهر مَنْ ترجموا للإمام الجيلاني ـ على وضع الأسانيد المعنعنة لهذه الحكاية وغيرها من حكايات البهجة، وكأنه بذلك يزيد من يقينية ما يورده. لكن ذلك لم يمنع العلماء من الطعن فيها وفيه، كما فعل الخوانساري في (رَوْضات الجنّات) وقد كان الشطنوفي بمأمن

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٥٤، ٥٥.

من ذلك كله، لو وقف بـالكلام عنـد حدِّ الشـريعة وبيـان الطريقـة التي اتبعها الإمام الجيلاني، دون إسـرافٍ في حديثٍ، كـان الإمام ذاتـه يتجنَّبه ولا يحبُّ الخوض فيه.

ثانياً: وفقاً لما يحكيه الشطنـوفي، فقد التقى الإمـام الجيلاني بشخص (الدين) سنة ٥١١ هجرية، وهو وقتٌ لم يكن فيه الإمام قد تـأهَّل بعـد لإحياء الدين، فقد كـان الأوفق أن يؤرِّخ لذلـك ببدايـة تصدُّر الإمـام للوعظ وإصلاح حال أهل الزمان.. وهـو ما كـان بعد سنـوات طويلة من التـاريخ الـذي ذكره الشطنوفي.

ثالثاً: كانت الكُنى والألقاب أمراً متداولاً في زمان الإمام، دونما حاجـةٍ إلى ابتـداع سببٍ للكُنية.. وقـد اتفق للمئـات من علمـاء المسلمين أن كُنُّـوا بمحيـي الـدين. فليس من الـطبيعي أن يُقـال لـلإمـام: مـا سبب تسميتـك بمُحيـي الدين! فمتى كانت الأسماء تُعلَّل..

أخيراً: إن مثل هذه التصنُّعات، لن تزيد من قدر الإمام الجيلاني، كما يريد الشـطنوفي، وإنمـا تفتح علينـا بابـاً من الفتنة فيـه، وتفسح الـطريق أمام اعتقادين: إما اعتقادٌ غيبيٌّ غير متعقِّل من جهة العوام؛ أو اعتقادٌ قاطعٌ بـرفض التصوف من جهة عوام العلماء.. وكلاهما اعتقادٌ باطل.

نسبه الشريف:

ثار جدالٌ طويل حول صحة نسب الإمام عبد القادر إلى آل بيت النبوة. فقد أكَّد مؤلفو ترجماته، كما أكَّدت القادرية من ذرية الإمام ومريديه، على أنه شريف النسب، إذ يتصل بـذرية بـاب مدينـة العلم «عليّ بن أبي طالب» على النحو الذي ذكرناه فيما سبق.

وعلى الجـانب الآخـر، يـرفض بعض المؤرخين ونسَّـابـة الشيعـة هـذا النسب الشـريف. فنجـد الخـوانسـاري يحشـد آراء هؤلاء الـرافضين، وعلى

رأسهم ابن عنبة[1] الذي قرَّر بصورةٍ قاطعة أن عبد القادر الجيلاني لم يدَّع هذا النسب، ولم يَدَّعه أيضاً واحدٌ من أولاده، وإنما كان أول مَنْ أظهر هذه (الدعوى الباطلة) حفيده: القاضي أبو صالح نصر بن أبي بكر بن عبد القادر. . وهي دعوى ـ وفقاً لعبارة ابن عنبة ـ لم تَقُم عليها بيِّنة، ولا عرفها له أحدٌ[2].

وحُجَجُ المُنكرين تتلخَّص في أن «عبد الله بن يحيى» رجلٌ حجازيٌّ لم يخرج من الحجاز، وهذا الاسم «چنكي دوست» أعجميٌّ صريح؛ وفوق ذلك، فلا طريق لإثبات هذا النسب إلا بالبيِّنة العادلة، وقد أعجزت هذه البيِّنة القاضي أبا صالح، واقترن بذلك عدم موافقة جده الجيلاني وأولاده. . ويعقب الخوانساري على ذلك بقوله: فَلْيُتَفَطَّنْ لِذَلِكَ وَلاَ يُغْفَلْ[3].

ولم تفضّ السنون هذا الخلاف! فمن قضايا المحاكم المشهورة اليوم في العراق، تلك الدعوى التي رفعها أحد أحفاد الإمام الجيلاني على الأستاذ محمد بهجت الأثري، لنفيه النسب العلوي عن جدِّهم في مقال كتبه بإحدى المجلات العراقية. . وما زال الأستاذ الأثري يصرُّ على رأيه هذا[4].

ولنا على هذا الخلاف جملة ملاحظات. . أولها، أنه جدلٌ عقيم! فما ينبغي لخلافٍ كهذا أن يطول فيه الأخذ والرد. إذ القرابة في حقيقة أمرها نوعان: قرابة الطين وقرابة الدين. . والنوع الأول هو المُعتبر لدى الخلق، أما

---

(١) هو أحمد بن علي بن الحسين الحسيني، المعروف بابن عنبة. . واحدٌ من كبار نسَّابة الشيعة. أهم مؤلفاته [عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب] كانت وفاته سنة ٨٢٨ هجرية.

(٢) الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات [تحقيق أسد الدين إسماعيليان ـ تهران ١٣٩٢ هـ] المجلد الخامس، ص ٨٥.

والنص الذي نقله الخوانساري عن ابن عنبة، وارد في: عمدة الطالب. . (طبعة النجف ١٩٦١) ص ٣٠٠.

(٣) روضات الجنات ٥/٨٦.

(٤) د. كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع [دار المعارف ـ الطبعة الثانية] المستدرك، ص ٥٥٦.

عند الحق وفي الشرع، فقرابة الدين هي الأساس، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «لا يتوارث أهل الملَّتين»[1]. فلولا القرابة الدينية، ما ورَّث القرابة الطينية شيئاً[2]. ولو لم تكن قرابة الدين هي الأَوْلى، ما قال ﷺ: سلمان مِنَّا آل البيت[3].

ولدينا من الأخبار والأحاديث الصِّحَاح، العديد من الآثار التي تحذِّر المسلمين من الخوض في التباهي بالأنساب، وتَنْهاهم عن التعلق بأهداب التفاخر بالآباء والأجداد، فيقعد بهم ذلك عن فضائل الأعمال[4].. فالكلُّ في

---

(١) رواه الترمذي عن جابر في السنن، باب الفرائض، رقم ٩١ ـ وابن حنبل في الموطأ ص ٤٢٦ بلفظ: لا يرث المسلم الكافر.

(٢) البريفكاني: شرح الحكم العطائية [تحقيق محمد مصطفى الكزني ـ دار الناشر العربي بالقاهرة] مقدمة المحقق ص ١٢.

(٣) حديث مشهور متواتر، جعل منه الصوفية دليلاً على القرابة الروحية؛ انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٢٢٠ ـ الفتوحات المكية لابن عربي ١/٢٥٦ ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٥٠.

(٤) عن ابن عمر أن النبي ﷺ خطب في الناس يوم فتح مكة فقال: أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان، رجل بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله، ورجل فاجرٌ شقيٌّ هينٌ على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من التراب [سنن الترمذي، تفسير القرآن برقم ٢٤، ٣٣ ـ تفسير القرطبي ١٦/٣٤١].
ومن الأحاديث النبوية المشهورة في هذا الباب، قوله ﷺ:
لينتهينَّ قومٌ يفتخرون بفحم جهنم.
إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا أنسابكم..
كلكم بنو آدم، وآدم من تراب.
المسلمون أخوة، وأحبكم إلى الله أتقاكم.
ويروي الفخر الرازي في تفسيره، أن بعض العلويين في زمنه كان مُسرفاً على نفسه، وكان هناك مولى أسود تقدَّم بالعلم والعمل فمال الناس للتبرك به.. واتفق أن خرج المولى الأسود من بيته يقصد المسجد، فاتبعه الخلق، فلقيه العلويُّ وهو سكران! فكان الناس يطردون العلوي ويبعدونه من طريق المولى الأسود، فتعلَّق العلوي بأطرافه وقال له: يا أسود الحوافر والشوافر، أنا ابن رسول الله أذلُّ وتجلُّ، وأذمُّ وتكرم، وأُهانُ وتعان.. فهمَّ الناس بضرب العلويِّ، فمنعهم المولى الأسود عنه، وقال له:
أيها الشريف، بيَّضتُ باطني وسوَّدتَ باطنك، فرأى الناس بياض قلبي على سواد وجهك فحسنتُ؛ وأخذتُ سيرة أبيك وأخذتَ سيرة أبي، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي، فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي، فعملوا معك ما يُعمل مع أبي، وعملوا معي ما يُعمل

الإسلام بنو آدم، ويوم يُنفخ في الصور فلا أنساب بينهم!

والملاحظة الثانية، تتعلّق بما استدلَّ به منكرو النسبة حين قالوا إن الإمام «عبد الله بن يحيى» رجلٌ حجازيٌّ لمْ يخرج من الحجاز، وأن الإمام الجيلاني وُلد ببلاد فارس، وفي اسمه «چنكي دوست» وهو اسم أعجميٌّ صريحٌ.. نقول: إن عدم خروج الإمام عبد الله بن يحيى من الحجاز، لا يعني عدم خروج واحدٍ من أولاده! فإذا كان الإمام عبد الله [جَدَّ] الإمام الجيلاني، فربما كان [والد] الشيخ عبد القادر(1) هو الذي خرج إلى بلاد فارس.. وأما لفظة «چنكي دوست» التي كانت من أسباب الخلاف الرئيسية، فهي محض لقب فارسيّ ـ وليست اسماً كما يُفهم من كلام ابن عنبة والخوانساري ـ أضافه أهل فارس لاسم موسى بن عبد الله. وهي كلمة فارسية تعني حرفياً: المُحبُّ للقتال.

والملاحظة الأخيرة هنا، مستمدة مما كتبه الزميل جعفر سهيل.. فقد أشار إلى أن الذين أنكروا نسب الإمام الجيلاني، هم على وجه الخصوص [نسّابة الشيعة] لما كان للإمام من مواقف حادة ضد التشيُّع. وقد تشدَّد هؤلاء في الإنكار، لا على الحقيقة والواقع، وإنما على التعصُّب(2).

ونخرج من هذه الملاحظات إلى الحقيقة التالية:

لم يهتم الإمام الجيلاني بتأكيد نسبته إلى آل بيت النبوة لعدة أمور، أولها اهتمامه بما هو أولى من الأنساب ـ أعني تهذيب نفوس مريديه وإصلاح حال أهل زمانه ـ وثانيها اشتهار هذه النسبة في وقته وبين أسرته بجيلان، تلك

مع أبيك.. [القرب في محبة العرب للعراقي، تحقيق الشيخ إبراهيم حلمي القادري ص ٣٢، ٣٣].

(1) من الغريب أن جميع المصادر التي أسهبت في الترجمة للإمام الجيلاني، لم تشر إلى والده، مع أنها تعرضت لبقية أفراد أسرته.

(2) جعفر صادق سهيل: عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي [رسالة ماجستير بإشراف د. محمد كمال جعفر ١٩٧٥] المكتبة المركزية بجامعة القاهرة برقم ١٥٢٠، ص ١٨.

الأسرة التي تشير إليها المصادر بلفظ [الأشراف] وهي اللفظة التي تُطلق على آل بيت النبوة إلى اليوم في كافة بلدان الإسلام، فلم يكن هناك داعٍ لتأكيد النسب. . وأخيراً، فربما خشي الإمام أن يصبح التعلُّق بسلسلة النسب الشريف، عادة لذريته يركنون إليها فيقعدون عن الترقي بفضائل الأعمال، وقد كان الإمام دائم الترديد لهذا البيت الشعري [من الطويل]:

وَمَا يَنْفَعُ آلإِعْـرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تُقَى وَمَا ضَرَّ ذَا تَقْـوَى لِسَانٌ مُعَجَّمُ[1]

إلا أن الإمام الجيلاني لم يهمل الإشارة إلى نسبه الشريف تماماً، فقد ألمح إليه بإشارات عابرة في الأبيات الأخيرة من قصائده؛ وهي الظاهرة الشعرية المعروفة في قصائد الفرس باسم [التخلُّص] والتي نراها في القسم الأول من (ديوان عبد القادر الجيلاني) ثالث كتب هذه المجموعة الخاصة بالتراث القادري.

مولده ونشأته:

سُئل الإمام الجيلاني عن مولده، فقال: «لا أعلمه حقيقةً، لكنني قدمتُ بغداد في السنة التي توفي فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثمان عشرة سنة». . فلما كان أبو محمد رزق الله التميمي، المُشار إليه في عبارة الإمام قد توفي سنة ٤٨٨ هجرية[2]، فإن مولد الجيلاني يكون سنة ٤٧٠ هجرية.

---

(١) بهجة الأسرار ص ١٠٣ ـ قلائد الجواهر ص ٩٦. . وهذا البيت الشعري. من بيتين ذكرهما النووي في: بستان العارفين [دار الصابوني، ص ١٣٩] لهلال بن العلاء، وهما:

سَبِيلِي لِسَانٌ كَانَ يُعْـرَبُ لَفْظُـهُ فَيَا لَيْتَـهُ فِي وَقْفَـةِ آلعَـرْضِ يَسْلَمُ

وَمَا يَنْفَـعُ آلإِعْـرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تُقَى وَمَا ضَـرَّ ذَا آلتَّقْـوَى لِسَانٌ مُعَجَّمُ

(٢) بهجة الأسرار، ص ٨٨.

ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٤٨٨ هجرية: في جمادى الأولى توفي أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي، الفقيه الحنبلي، كان عارفاً بعلوم عدة، وكان مقرباً من السلاطين. . [الكامل في التاريخ ١٠/٢٥٣].

وهـو التاريـخ الذي اعتمـده الشطنـوفي، وتـابعـه فيـه العـديـد من المؤرخين والمترجمين للإمام[1].

أما ابن العماد، فيذهب إلى تاريخ آخر. . فيقول إن وفاة الإمام بإجماع المؤرخين كانت سنة ٥٦١ هجرية، وأنه عاش تسعين سنة، وعليه يكون مولده سنة ٤٧١ هجرية[2]. . وهو التاريخ الذي يقرره أيضـاً: ابن شافـع الجيلي[3] وابن الجوزي[4] وابن تغري بردي[5].

ثم شَطَّ ابن شاكر شططاً بعيداً حين قـال في [الفوات] إن مـولد الإمـام كان سنة ٤٩١ هجرية، دونما ذكرٍ للمصدر الذي نقل عنه ذلك. وهذا التاريخ الذي يقرره ابن شـاكر لا يخـرج عن أمرين: إمـا خطأٌ وسهـوٌ من المؤلف، أو تصحيفٌ من أحد نُسَّاخ الفوات. . وهو في الحالين بعيدٌ عن الصواب.

فـإذا عُـدْنـا إلى التـاريخين الأولين [٤٧٠، ٤٧١] واللذين تعـادلت قيمتاهما التاريخية، ورواهما الثِّقات من المؤرخين؛ وجدنـا الاختلاف بينهمـا يسيراً. وثمة أمرٌ قد يرتفع به الخلاف، وهو أن الإمام الجيلاني وُلد أواخر سنة ٤٧٠ هجرية، وأنه حين قال بنزوله بغداد وهو في الثامنة عشرة كان يُشيـر إلى عمره آنذاك إجمالاً، فليس من المعتاد أن يُقال: كان سِنِّي سبعة عشر، وكـذا من الشهـور. . وعلى ذلك يكـون مولـد الإمام عبـد القـادر أواخـر سنـة ٤٧٠ هجرية، أو على الأكثر، في مستهلِّ السنة التالية لها.

ووُلد الإمام بقريةٍ من قرى جيلان يقال لها [بُشْتِيْـرُ][6] وهو يُنسب إليهـا

---

(١) انظر على سبيل المثال: الشطنوفي ص ٨٨ ـ ميزرا على مدرس ص ٢٥٤ ـ براون ص ٧٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ٣٠٢/٤.

(٣) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٨.

(٤) ابن الجـوزي: المنتـظم في تـاريـخ الملوك والأمم [حيـدرآبـاد ١٣٥٨ هـ] المجلد العـاشـر، ص ٢١٩.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٧١/٥.

(٦) يقول ياقوت: بشتير [بالضم والثاء المثناة المكسورة واليـاء الساكنـة] موضـعٌ في بلاد جيـلان؛ =

أحياناً[1] . . وكان مولده بين أسرةٍ معروفةٍ بـالفضل والعلم، لهـا مكانـة روحية مميزة؛ فجَدُّه الشيخ أبو عبد الله الصوفي من كبار زُهَّاد الناحية وعلمائها، وقد وُصف بأنه كان «مُجاب الدعوة، إذا غضب انتقم الله سريعاً لغضبه. وكان مع ضعف قوته وكبر سنه، كثير النوافـل دائم الذكـر ظاهـر الخشوع. وكـان يُخبر بالأمر قبل وقوعه»[2] وهكذا اجتمعت في الجد صفات الزاهد الصـوفي، تلك الصفات التي كانت إطاراً لفهم حفيده الصغير للتصوف؛ وبـذلك، تَمَّ إعـداد الإمام الجيلاني للولاية قبل أن يولد!

وكانت عَمَّته المعروفة بأمّ محمّد عائشة بنت الأشـراف، مشهورةً هنـاك بالصلاح والتقوى؛ وقد خُلعت عليها علامات الغوثية أيضاً. . فيقـال إن بُشتير وما حولها من قرى جيلان، أصابها جدبٌ شديدٌ كاد يتلف الزروع والضروع، فلجأ أهل جيلان إلى العابدة الزاهدة المتدثرة بالغـوثية، وألحـوا عليها بلسـان الاضطرار أن تدعو بانهمـار المطر. . فقـامت بعد صـلاة الاستسقاء، فكنست الأرض؛ ورفعت وجهها للسماء قائلةً: أنا كنستُ فرُشَّ أنت[3]. فلم يلبثوا أن فُتحت السماء كأفواه القرب.

وكانت والدته «أمّ الخير فاطمة بنت عبـد الله» سيدةً ورعـةً تقيَّة، ورثت عن والدها الورع وأورثته ولدها. وقد عملت الوالدة على أن يشبَّ الولـد على ما يؤهِّله للجلوس على بساط الصلاح؛ فها هـو يتلقى علوم القرآن والحـديث والسيـرة، ثم يصبـو للمـزيـد، ويـأمـل في الاستـزادة، فيصحب زُوادتـه إلى بغداد. . كما سنرى بعد قليل.

وأغلب الـظن أن الإمام الجيـلاني قد نشـأ يتيماً من جهـة الأب، فعلى

= قـالوا: إليهـا يُنسب الشيـخ عبـد القـادر بن أبي صـالـح الحنبلي البُشتيـري. . [معجم البلدان ٤٢٦/١].

(١) البستاني: دائرة المعارف، مادة الجيلاني [دار المعرفة ـ بيروت] ٦٢١/١١.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ١٩٩/٤ ـ الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٩.

(٣) المرجعان السابقان، الصفحة نفسها. . وأيضاً: قلائد الجواهر ص ١٠.

الرغم من أن المصادر الخاصة به لم تذكر هذا صراحةً[1]، إلا أن هناك عدة أمور تؤكد يُتْمه، منها:

* كون الإمام قد عُرف بجيلان بلقب [سِبْط أبي عبد الله الصومعي] والسِّبْطُ لقبٌ لا يُخلع في العادة إلا على الأيتام من جهة الأب، إلحاقاً بجدِّهم، خاصةً إن كان الجدُّ من الأفاضل.

* سكوت المصادر عن أية إشارة لوالده، رغم إفصاحها عن أحوال بقية الأسرة.

* غالباً ما تذكر المصادر التي أرَّخت لحياة الإمام بجيلان، عدة مواقف بينه وبين والدته، دون والده.

* قول الإمام إن أمه أعطته عند رحيله لبغداد، بعض الدنانير التي «خلفها» والده[2]..

لكن اليُتْمَ لم يكن يوماً، حائلاً يعوق ارتقاء سلم المعارف، بل ربما كان باعثاً حثيثاً على ذلك.. ولما كان الموت قدر البشر كلهم، فكلُّنا في الحقيقة أيتامٌ من الجهتين.

* * *

في جيلان كانت النشأة وبداية المسار، وعبر المرحلة الممتدة من مولد الإمام حتى بلوغه الثامنة عشرة، رُسمت اللوحة الأولى لحياته. فها هو طفلٌ من الأشراف يجلس بين أقرانه مستمعاً لترتيل القرآن من معلمه؛ وها هو في منزله يتأمل قسمات وجه جدِّه الصومعيِّ الزاهد إذا خرج من صومعته وراح يلاطف حفيده اليتيم، بينما الحفيد غارقٌ في فيوضات التِّحنان والنور الرباني المتألِّق في عينيّ الجد؛ وها هو تحت فراشه الليليِّ، يسبح في سماء غرفته

(1) كان جعفر صادق سهيل قد ذكر في رسالته هذا الأمر بطريقة تقريرية دون إشارة إلى المصدر الذي اعتمد عليه.

(2) انظر: بهجة الأسرار ص ٨٧ ـ قلائد الجواهر ص ١٠.

مع تلك المعاني الروحية التي ألقاها في روعه وقلبه، همسُ أمه بآيات القرآن في سكون الليل وعند قيامها لصلاة الفجر؛ وها هـو يسكن تحت أنامـل عمته التي راحت تتخلّل شعـر رأسه وشـرايـين قلبه وقـد راحت عيناهـا في أرتحـال للداخل، حيث تنفض غبار الزمن عن ذكريات أخيها، والد عبد القادر، فيزداد الشجن وتشتدُّ الضَمَّةُ للطفل اليتيم، ثم تهجم عليها أفـراح الأمل في الصغيـر حين تتذكر تلك الواقعة التي جـرت عند ولادتـه، حين كان لا يلقم ثـدي أمه نهار رمضان، فـإذا آن الغروب نهـل الرضيـع، حتى كان العـام المقبل واغتمَّ على النـاس هلال رمضـان وحاروا بين الصـوم والإفطار، فقـالت أمـه إنـه لم يرضع في نهاره، وعرفوا بعدها أنه كان يوم صوم. . تتذكر العمة فيهدأ خوفهـا على ابن الأخ، اليتيم الذي لاحت بشرى ولايته في المهد وكهلاً.

ونـرى عبـد القـادر بعـد سنـوات وقـد نبت في لحيتـه شعـرٌ خفيف، وتشابكت في عينيه أشجارُ الغربة. . تودِّعُ مُقلتاه القوافـلَ الراحلةَ إلى بغـدادَ، فيحنُّ، ويضيق بـه مسعـاه بين مـروج بُشْتيـر، ويحلم بـأوليـاء بغـداد، وعلوم بغداد. فإن أفـاق من نشوتـه، ضاق بـدروب قريتـه، وعاد لحلمـه المقيم بين الشغاف وأوتار القلب.

ويحكي المُحبُّون للإمام، كيف استطال به الشوق وغلبه الحنين للسفر. حتى كـان ذلك اليـوم الذي رحلت فيـه قـافلة الحجيـج، فتبعهـا حتى حـدود البلدة، وعاد فارتقى سطح منزل جده الزاهد، ليطوِّل توديعه للقـافلة الراحلة. فلمـا غابت الـرواحل عن بصـره، تجلَّت لبصيرتـه أنوارُ مكَّـة ونفحـات البيت العتيق، وإذا به يرى الحجيج هناك مُهلِّلين ومُكبِّرين؛ فامتلأت عيناه بالوجـد، وغالب الشوقَ فانغلب. . هبط الدرج آسياً، رأت أمه بحـار الحنين تتفجَّرُ في عينيه، سألته، فصارحها بمكنون الفؤاد. . قالت:

يَا وَلَدِي؛ اذْهَبْ، فَقَدْ خَرَجْتُ عَنْكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا وَجْهٌ لَا أَرَاهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

الخروج إلى بغداد

الرحلة:

يقول أقطاب الطريق الصوفي، إن النهايات لا تصح إلا بصحة البدايات[1]، وأنه لا بد للبذور من الدفن.. فما نبت مما لم يصلح دفنه، لا يتمّ نِتاجُه[2]. ولقد كانت البداية والبذرة الدفينة في المنحنى الروحي لحياة الإمام، بجيلان؛ فهناك كانت النشأة الدينية القويمة، والنفحة الصوفية القوية؛ وكانت علوم القرآن والحديث والفقه وآداب الزُّهَّاد، أساساً للجدار الصوفي الذي ارتقاه الإمام فيما بعد.. وعلى الجملة، فقد كان للإمام: بذورٌ صِحَاحٌ غُرست بجيلان، وأورقتْ ببغداد، وتوزعت ثمارها على العالم الإسلامي كله.

وفي الطريق إلى بغداد، يحكي المترجمون المُحبُّون للإمام واقعة؛ فقد كان تحت ثيابه أربعون ديناراً خاطتها أمه في موضعٍ خفيٍّ، وبينما القافلة تشق الطريق الجبلي في مسيرها إلى بغداد، خرج قاطعو الطريق، فانفرط

(١) الهروي الأنصاري: منازل السائرين [طبعة البابي الحلبي ١٩٦٦] ص ٤.
(٢) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، مع شرح الشيخ زروق [تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف ـ دار الشعب ١٩٨٥] ص ٣٦.

عقد القافلة، وعلا الصراخ والهيـاج والنهب، وسكن الشابُّ الجيـلاني، حتى انتهى السطو. فإذا بواحدٍ من قاطعي الطريق يتقدَّم إليه مُستخِفّاً به: وأنت أيها الشـاب، أليس معك شيء؟ يقـول الجيـلاني: معي أربعـون دينـاراً. يتعجَّب اللصُّ: وأين هي؟ يـرد: مُخـاطـة تحت ثيـابي.. يتحـول تعجُّب اللص إلى حنق، يريد الفتك بالشاب الذي بدا له أنه يهزأ بـه، يقوده إلى زعيم الجمـاعة القـاطعة، يحكي مـا دار بينهمـا، يسـألـه الـزعيم نفس الأسئلة، فيتلقى نفس الردود. يتعجَّب: إن كان معك الدنانير كما تقول فأخرجهـا! يُخرج الجيـلاني الدنانير، فينقلب التعجُّب إلى دهشةٍ ووَجَلٍ من الشاب. يترجم الزعيم تعجُّبه ودهشتـه ووجله في السؤال: لماذا تفعـل ذلك وقـد كنت بمنأى من السـطو لو أنكرت ما معك؟ يقول مَنْ سيصير إمامـاً: «لأنني عاهـدتُ أُمِّي قبل خـروجي على الصدق، وأنا حـافظٌ لعهدي معهـا».. هنا يعتصـر الوجـدُ قلب الزعيم، ويـرتجف قلبه النـائم في ضلوع الفسق، ويتـأمـل: «هـذا الفتى يحـافظ على عهده لأمه حتى يُنهبَ ويكاد يُقتل، وأنا أخون عهـد الله فأنهبُ وأقتـلُ».. يرد الـدنانيـر لصاحبهـا، ويرد مـا سلبه للقـافلة، ويُعلن: «اعلموا إنني تـائبٌ إلى ربي، مقلعٌ عما اعتدته، مقبلٌ على عمـل الخير».. وتحت تـأثير روعـة توبـة الزعيم، وانفعالاً بموقفه؛ يعلن بقية القُطَّاع عودتهم إلى طريق الله تائبين.

تلك هي الواقعة التي يرويها الشطنوفي واليـافعي والتادفي[1]، والعهـدة فيها على الرواة ـ إذ نجدها أيضاً في مواضـع أخرى منسـوبةً لغيـر الجيلاني ـ وإذا لم تكن الواقعة حقيقية، فإنها تدلُّ على حقيقـة اعتقاد القـادرية في بـركة شيخهم وألـوية ولايتـه المرفـوعة منـذ الصغـر.. ومـع أن الـواقعـة بعيـدة في مصداقيتها عن عوام الأفهام، إلا أنها غير مستحيلة الوقوع.

ونعود لرحلة الإمام الجيلاني التي انتهت إلى بغداد سنة ٤٨٨ هجـرية،

---

(١) راجع القصة الكـاملة لخروج الإمـام الجيلاني إلى بغـداد ووداع أمه لـه، في: بهجة الأسـرار ص ٨٧ ـ قلائد الجواهر ص ٣ ـ خلاصة المفاخر [مخطوط].

فنلاحظ أنها السنة التي ترك فيهـا الغزالي [حجـة الإسلام أبـو حامـد محمد، المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية] التدريس في نظّامية بغداد الشهيـرة، حيث تزهّـد، ولبس الخشن، وسافر سفـرته التي وضـع فيها مـوسوعتـه [إحياء علوم الـدين] والتي عاد بعدها، ليرحل رحلته الأخيرة إلى خُراسـان. . وهكذا، نـزل الإمام الجيلاني من بلاد فارس إلى بغداد، في الوقت الذي نـزح فيه حجـة الإسلام من بغداد إلى بلاد فـارس. . لم يُطلب منهمـا آنذاك جـوازات سفر وتصـاريح دخول، ولم يكن فاصل الشوك والنار قد قطع ما بين أقطار الإسلام.

وحين دخل الشاب الجيلاني بغداد من بوابتها الشرقية، خفق قلبه، وهو القرويُّ النقيُّ، لما رأى اجتماع الأضداد وتعانقها بين دروب بغـداد؛ القصور العالية وخلوات الزهاد، مجالس اللهو، وحلقات الدرس، دنـان الخمر وكتب الفقـه، السكارى والفقهـاء، الشيـاطين والمـلائكـة. . كـانت بغـداد آنـذاك: مختصر الكون كله.

كـان دخول الجيـلاني بغداد انقـلابين: انقلابـاً في المنحنى الشخصي للجيـلاني، وانقلابـاً في واقع بغـداد الديني. ففي بغـداد وما حـولهـا، تنقّـل الجيـلاني في أطـوار الـرحلة الممتـدة من الخلق إلى الحق، من الـدنيـا إلى الآخـرة، من الأرض إلى السماء. . وفي بغـداد أزهـرت شجـرة ولايتـه تـوبـةً وعودةً بأهل الزمان إلى حضن الإسلام النقي. وهكذا شهدت حـاضرة العـالم الإسـلامي آنذاك هـذا التحوُّل الـذي سنعرض لـه بـالتفصيـل فيمـا يـأتي من صفحات، والذي عبَّر عنه بعض مُحبِّي الإمام، فقال شعراً [من الطويل]:

بِمَقْدَمِهِ آنْهَلَّ ٱلسَّحَابُ وَأَعْشَبَ ٱلْـ ... عِـرَاقُ وَزَالَ ٱلغَيُّ وَٱتَّضَحَ ٱلـرُّشْدُ
فَـعِيـدَانـهُ رَنْـدٌ وَصَحْـرَاؤُهُ حِمىً ... وَحَصْبَـاؤُهُ دُرٌّ وَأَمْـوَاجُـهُ شَهْـدُ
يَمِيسُ بِـهِ صَدْرُ ٱلعِـرَاقِ صَبَـابَـةً ... وَفِي قَلْبِ نَجْدٍ مِنْ مَحَاسِنـهِ وَجْدُ
وَفِي ٱلشَّرْقِ بَرْقٌ مِنْ مَحَاسِنِ نُورِهِ ... وَفِي ٱلـغَرْبِ مِنْ ذِكْرَى جَلاَلَتِه رَعْدُ

ويمكننا اختزال المنحنيات الكبرى في سيرة الإمام الجيلاني ببغداد ـ التي سكنها حتى وفاته ـ خلال تناولنا له: فقيهاً، ملامتياً، مجذوباً لربه..

الفقيه:

نفض الشاب الجيلاني تراب السفر عن ملابسه، وتهيَّأ ليتمَّ ما جاء من أجله، وليحصِّل من العلوم الهادرة ببغداد طرفاً، وقد تذكَّر الإمام الجيلاني هذه الفترة من حياته بعد زمن، فنظر إلى بعيد وهو يقول لِمَنْ حوله: لَقَدْ دَخَلْتُ فِي أَلْفِ فَنٍّ حَتَّى أَسْتَرِيحَ مِنْ دُنْيَاكُمْ.

وكان الفقه أول الفنون (الأَلْف) التي دخلها الإمام الجيلاني ليريح قلبه من هموم الدنيا، وقد كان بدراسته للفقه يستكمل ما بدأه في موطنه الأول من دراسة دينية، ويُحكِم في الوقت ذاته ذلك الجدار الروحي الذي سيقيمه في أرض التصوف.. فإن مَنْ يدخل إلى الحقائق الذوقية من باب الدقائق الفقهية، فهو يعصم نفسه ـ أو بالأخرى يعصمه الله ـ من الوقوع في مخادعات الطريق ومخاطره ومُنحنياته؛ فطريق التصوف وعرٌ، لا يتسنى للعبد الصادق قطع مراحله، إلا بأقدام الفقه وعلوم الشرع.

وإننا لنتساءل عن سِرِّ إقدام الإمام الجيلاني على دراسة الفقه؛ هل كان ذلك باختياره، أم بتوفيق الله له وعنايته به؟ يبدو أن ذلك كان بالأمرين معاً.. فكما يرى الصوفية، فالولاية قدرٌ أزليٌّ لأصحابها، تظل العناية الإلٰهية تعدو بأهل الله، حتى تصل بهم إلى الغاية، فإذا سارت إرادة العبد مع إرادة الخالق، تحقق ما لا بدَّ من تحقيقه!

وقد تلقَّى الإمام علوم الفقه فروعاً وأصولاً، مذهباً وخلافاً، على يد أربعة من كبار مشايخ عصره، هم: أبو الوفاء بن عقيل، أبو الخطاب الكلوذاني، أبو الحسن بن يعلى الفرَّاء، أبو سعيد المخرمي.. وقد كانت

للأخير مكانة خاصة عند الجيلاني، سوف نتعرض لها في الفصل التالي، حين نتناول أهم شيوخ الإمام ومعاصريه.

وكانت عناية الإمام بالفقه عامة، وعنايته بالفقه الحنبلي خاصة. وقد برع في دقائق هذا التخصُّص الفقهي حتى صار فيما بعد، زعيماً لفقهاء الحنابلة ببغداد، وعلماً من أعلام الفقه الحنبلي في تاريخه الممتد من أحمد بن حنبل حتى يومنا هذا.. وهنا تستوقفنا تلك العلاقة بين المذهب الحنبلي والتصوف؛ فقد عُرف الاتجاه للتصوف عند العديد من مشاهير هذا المذهب، برغم ما يبدو من فروق بين تشدُّد الحنابلة وتسامح الصوفية. فما هو سِرُّ العلاقة بين الحنبلية والتصوف؟

يذهب بعض المساكين من الباحثين الذين تخصَّصوا في دراسة المذهب الحنبلي، إلى أن الميل للتصوف عند بعض الحنابلة هو بمثابة نقطة الضعف في هذا المذهب! وهو رأي لا يستند إلا إلى ضعف القائلين به وقصور نظرتهم.. فالتصوف نهايةٌ طبيعيةٌ لهذا المذهب الفقهيِّ، الذي تميَّز بالتشدُّد في دقائق الشريعة، فإذا هو يُنبئ بسطوع أنوار الحقيقة. فما دام الحنبليّ ذا بصرٍ وبصيرةٍ، فإنه معرَّضٌ لا محالة لأنوار الطريق الصوفي، ذلك الطريق الذي يبدأ بصدق الظاهر وينتهي بروعة المظاهر.. فمن الطبيعي إذن، أن نجد ارتباطاً بين التصوف والمذهب الحنبلي عند الجيلاني، وغيره من أعلام الإسلام.

ونعود لصحبة الشاب الجيلاني ببغداد، وسعيه لطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم؛ فنراه ينتهي من دروس الفقه ليشتغل بدروس الحديث النبوي وأصوله، حيث سمع من كبار المحدِّثين من أمثال: أبي غالب الباقلاني، أبي سعد بن خنيش، أبي الغنائم الرَّسِّي، أبي بكر التمَّار، أبو محمد السَّرَّاج.. وغيرهم كثيرون[1]. وقد روى الإمام الحديث، وكان ثقةً فيه، كما

(١) انظر بهجة الأسرار، ص ١٠٦.

رواه من بعده أبناؤه وأحفاده، حيث كان من ثقات المُحدِّثين ولده (عبد الرزاق) وحفيده (القاضي أبو نصر).

في هذه الفترة أيضاً، درس الإمام الأدب وعلوم اللغة، وكان ذلك على يد أبي زكريا التبريزي.. وقد بلغ من حب الإمام للعربية أنه لم يكتب إطلاقاً بغيرها، فلم يفعل مثل بعض الفرس الذين ألَّفوا بالعربية وبالفارسية ـ كابن سينا والسُّهروردي ـ وإنما صارت العربية له لساناً وقلماً ومنهجاً فكرياً.. على أن ذلك لم يمنعه في بعض الأحيان من استخدام بعض الألفاظ الفارسية التي كانت متداولة في عصره، كقوله في وصف القطب إنه: «حَاكِمُ دَسْتِ ٱلوَقْتِ»[1].. لكنها مرات نادرة جداً، تلك التي ضمَّن فيها كلامه ألفاظاً فارسية.

وتلقى الإمام في هذه المرحلة أصول علمٍ كان قد نضج تماماً، هو (علم الكلام) الذي تشعَّبت مباحثه واستقرت، عبر محاولات عديدة تسعى في جملتها للدفاع عن حقائق الإسلام استناداً إلى الأحكام العقلية والإقناع المنطقي[2]. لكن نفس الإمام الجيلاني عزفت عن مباحث علم الكلام؛

---

(١) الجيلاني: ديوان عبد القادر الجيلاني [القسم الثاني] مقالة: وصف القطب.. ولفظة [دست] تعني بالعربية: القدرة والسلطان.

(٢) اتخذ (الكلام) مفهوماً اصطلاحياً منذ وقت مبكر، وعُرف أصحابه باسم (المتكلمون) ولكي نستوضح المراد من هذا المصطلح، نورد فيما يلي بعض تعريفات علماء المسلمين له:

ـ الفارابي: هو صناعة يُقتدر بها على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرَّح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل.

ـ ابن خلدون: الكلام علمٌ يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وعقائد أهل السنة.

ـ الأيجي: الكلام علمٌ يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.

ـ التفتازاني: هو العلم المتعلق بالأحكام الأصلية الاعتقادية، ويسمى علم التوحيد والصفات، وعلم أصول الدين، وعلم الكلام.

وقد استخدم المتكلمون في دفاعهم عن الدين عدة مناهج وطرق حوارية، منها: البرهان الكلامي، التأويل، التفويض.. راجع (د. أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٨٦ ـ ص ٢٤١ وما بعدها).

لخوض هذه المباحث في دروب وعرة لم تستطع الخروج منها، كخوضها في طبيعة الذات الإلٓهية بأحكام عقلية عقيمة، أدَّت إلى تصورات تخالف المفهوم الواضح للذات الإلٓهية في الدين الإسلامي، وتخالف معرفة الصوفية لله، تلك المعرفة الشهودية التي عمادها العَيَان لا أحكام العقل. وقد تجلَّى رفض الإمام الجيلاني لآراء الفرق الكلامية بخصوص الذات الإلٓهية، في عقيدته التي يقول فيها:

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. لَوْ كَانَ شَبَحاً لَكَانَ مَعْرُوفَ ٱلكَمِّيَّةِ، وَلَوْ كَانَ جِسْماً لَكَانَ مُتَآلِفَ ٱلبَنِيَّةِ، بَلْ هُوَ وَاحِدٌ رَدًّا عَلَى ٱلثَّنَوِيَّةِ.. صَمَدٌ رَدًّا عَلَى ٱلوَثَنِيَّةِ.. لَا مِثْلَ لَهُ طَعْناً عَلَى ٱلحَشَوِيَّةِ.. لَا كَقَوْلِهِ رَدًّا عَلَى مَنْ أَلْحَدَ بِٱلوَصْفِيَّةِ.. لَا يَتَحَرَّكُ مُتَحَرِّكٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ رَدًّا عَلَى ٱلقَدَرِيَّةِ.. لَا تُضَاهَى قُدْرَتَهُ وَلَا تَتَنَاهَى حِكْمَتُهُ تَكْذِيباً لِلْهُذَيْلِيَّةِ.. أَنْزَلَ ٱلقُرْآنَ فَأَعْجَزَ ٱلفُصَحَاء فِي نِظَامِهِ إِرْغَاماً لِحُجَجِ ٱلمِرْدَارِيَّةِ.. أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِ ٱلمُؤْمِنِينَ وَأَضَلَّ ٱلكَافِرِينَ رَدًّا عَلَى ٱلهِشَامِيَّةِ.. يَرَى نَفْسَهُ وَيَرَى غَيْرَهُ، سَمِيعٌ بِكُلِّ نِدَاءٍ بَصِيرٌ بِكُلِّ خَفَاءٍ رَدًّا عَلَى ٱلكَعْبِيَّةِ.. يُرَى كَٱلقَمَرِ لَا يُحْجَبُ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَ ٱلرُّؤْيَا مِنَ ٱلمُعْتَزِلَةِ.. كَيْفَ يُحْجَبُ عَنْ أَحْبَابِهِ.. كَيْفَ يَفْرَحُ ٱلمَجْنُونُ بِدُونِ لَيْلَى ٱلعَامِرِيَّةِ؟[1].

وإذا كان الإمام في هذه العقيدة رافضاً لمذاهب المتكلمين على اختلاف فرقهم، فقد ظهر رفضه لعلم الكلام في العديد من المواقف، منها ما سنعرض له عند الحديث عن (السُّهروردي) المعاصر له. والحقيقة فإن رفض الإمام الجيلاني لعلم الكلام يأتي متمشياً مع طبيعة الصوفي، ومتوافقاً مع

---

(١) الجيلاني: ديوان عبد القادر الجيلاني (القسم الثاني) المقالة الأولى.

غالبية الصوفية، فهذا العلم ينافي في منطلقه ومساره، كل بديهيات التصوف؛ ولذا نجد حجة الإسلام (الغزالي) يتوقف أيضاً عن الخوض فيه أثناء بحثه عن (الحقيقة) فنراه يقول في ترجمته الذاتية إنه علم «وَافٍ بمطلوبه، غير وافٍ بمطلوبي» ونراه يضع كتاباً بعنوان: إلجام العوام عن علم الكلام.

ومن لطائف ما يروى في الفرق بين منهج المتكلمين وطريق الصوفية، تلك الواقعة التي يحكيها بعض المؤرخين عن المتكلم الهائل فخر الدين الرازي[1].. تقول الواقعة: لمَّا دخل الإمام فخر الدين الرازي هُراة، أتاه مَنْ بها من العلماء والصلحاء والسلاطين والأمراء، وسأل يوماً: «هل بقي أحدٌ تخلَّف عن زيارتنا؟ قالوا: نعم، بقي رجلٌ صالح منقطع في زاوية. قال الرازي: أنا رجل واجب التعظيم، وأنا إمام المسلمين، فلم لم يزرني؟ فقالوا لذلك الرجل كلام الرازي، فما تكلم بشيء أصلاً، ووقع بينهما الخلاف، فصنع أهل البلدة طعاماً، فدعوهما، فأجابا الدعوة، واجتمعا في حديقة، فسأله الرازي عن سبب تخلُّفه عن زيارته، فقال: أنا رجلٌ فقيرٌ لا شرف في زيارتي، ولا نقص في تخلُّفي عنها. قال الرازي: هذا، هو جواب أهل الأدب (يقصد الصوفية) فقُل لي حقيقة الحال. فقال الرجل: لأي شيءٍ وجبت زيارتك؟ قال الرازي: أنا إمام المسلمين، وواجب التعظيم. قال: إن افتخارك بالعلم، ورأس العلوم معرفة الله تعالى، فكيف عرفته تعالى؟ قال الرازي: بمائة البراهين. قال: البرهان لإزالة الشك، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك، فضلاً عن الحاجة إلى البرهان.. فأثَّر هذا الكلام في قلب الرازي، وتاب في ذلك المجلس.. وكان ذلك الرجل،

---

(١) هو الإمام: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي، المعروف بابن خطيب الري، توفي بهراة سنة ٦٠٦ هجرية. راجع ترجمته في:
وفيات الأعيان ١/٦٠٠ ـ طبقات الشافعية ٥/٣٥ ـ عيون الأنباء ٢/٢٣ ـ تاريخ الحكماء للشهرزوري ٣٩٢ ـ الوافي بالوفيات ٤/٢٤٨ ـ ميزان الاعتدال ٢/٣٢٤ ـ لسان الميزان ٤/٤٢٦ ـ مرآة الجنان ٤/٧ ـ البداية والنهاية ١٣/٥٥ ـ شذرات الذهب ٥/٢١. وهناك (عشرات) الأبحاث والدراسات والترجمات الأخرى، لفخر الدين الرازي.

الشيخ نجم الدين كُبرى»[1] ومن هنا نفهم السر وراء بكاء الرازي في بعض المناسبات قائلاً: «يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام»[2] ومن هنا نفهم بيته الشعري الرائع [من الطويل]:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ ٱلعُقُولِ عُقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ ٱلعَالَمِينَ ضَلَالُ[3]

ولنعد إلى إمامنا الجيلاني في أيامه ببغداد، فنراه هذه المرة في ثوبٍ جديدٍ، فهو في هذه اللوحة، ليس الفقيه الجالس على بساط الدرس، ولا اللُّغوي الباحث في دقائق العربية، ولا الناظر في عقائد المتكلمين.. وإنما:

الملامتي:

في الفتوحات المكية تأتي إشارةٌ موجزة للإمام الجيلاني، يقول فيها ابن عربي «وممن تحقَّقوا بالملامتية، شيخنا عبد القادر الجيلاني»[4].. فما هي الملامتية، وكيف كانت ملامتية الإمام الجيلاني؟

من القواعد الأساسية في الطريق الصوفي، أن يعمل المبتدئ حيناً من الدهر في إصلاح حال نفسه، فللصوفية مفهومٌ خاص للنفس الإنسانية، يتلخَّص في أن النفس [موطن كل سوء] ومن هذا المفهوم وجبت ضرورة مجاهدة النفس، ومخالفتها، ولومها لوماً شديداً.

وفي بلاد فارس، في خُراسان على التحديد، ظهر قومٌ من أهل الطريق الصوفي، كان جُلُّ هَمِّهم: إصلاح حال نفوسهم، بلومها اللوم الشديد..

---

(١) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة [حيدرآباد، الهند] المجلد الأول، ص ٤٥٠.

وبخصوص (نجم الدين كبرى) يمكن الرجوع إلى الفصل الذي عقدناه له في كتابنا: شعراء الصوفية المجهولون [مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة].

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٢/٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

(٤) ابن عربي: الفتوحات المكية [الطبعة الكاملة ـ دار الكتب العربية] المجلد الثاني، ص ٢١.

فسُموا ـ على غير قياس ـ بالملامية والملامتية، والتسمية الثانية هي الأشهر.

وتدفق تيار الملامتية من أحوال صوفية خُراسان، خاصةً حَمْدون القَصَّار، الذي عدَّه السُّلَمي: شيخ أهل الملامة[1]. فقد كان حمدون (المتوفى سنة ٢٧١ هجرية) شيخ الملامتية بخراسان، ومنه انتشر مذهب الملامتية في سائر البلدان.

واشتهر من الملامتية كثيرون، منهم: أبو عثمان الحيري سنة ٢٩٨ هجرية، شاه بن شجاع الكرماني سنة ٣٠٠ هجرية، محفوظ النيسابوري سنة ٣٠٣ هجرية، وأبو علي المرتعش سنة ٣٢٨ هجرية، وأبو عمرو الزجاجي سنة ٣٤٨ هجرية، وأبو عبد الله الشعراني سنة ٣٥٣ هجرية، وأبو بكر النيسابوري سنة ٣٦٠ هجرية، وعليّ بن بِنْدار، وأبو عبد الله الروغندي، وابن عُليان، والبوشنجي، والنصراباذي، وأبو عمرو إسماعيل بن نجيد السُّلَمي المتوفى بمكة سنة ٣٦٦ هجرية.. وغيرهم.

ومع أن الملامتية فرقةٌ صوفية، إلا أنها تميزت بطابع خاص، جعل مؤرخي التصوف ومشايخه يعقدون في مؤلفاتهم فصولاً تختصُّ بالفرق بين الصوفيّ والملامتيّ[2]. وبشكلٍ عام؛ فإن الملامتيّ هو الذي لا يرى في الدنيا أي خير، ولا يرى في طاعاته لربه مدخلاً للعُجْب بالنفس، ولا يرى لنفسه أي فضلٍ.. بل نراهم يبالغون في تحقير نفوسهم أشد المبالغة، فكان منهم مَنْ يفعل الأفعال المنكرة كي يستهجنه معاصروه، فيزداد إذلال نفسه! لكن ابن عربي حين استخدم لفظ (الملامتية) ووصف به الإمام الجيلاني؛ كان يتوسَّع بمفهوم اللفظ، بحيث لا يقتصر على ما ذكرناه، ولا يدل على طائفة معينة من الصوفية. بل هو: اسمٌ لصنفٍ من أهل الله يعيشون في كل

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية [دار الشعب] ص ٢٩.

(٢) راجع الفصول المخصَّصة لذلك في: رسالة الملامتية للسُّلَمي، الفتوحات المكية لابن عربي، عوارف المعارف للسُّهروردي، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي.

زمان ومكان، لهم صفات يتميزون بها من غيرهم، وهم يزيدون وينقصون بحسب اختلاف الأوقات[1]. يقول ابن عربي في الباب الثالث والعشرين من فتوحاته:

«اعلمْ أيَّدك الله، أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المُسمَّيْن بالملامية، وهم الرجال الذين حَلُّوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلَّا درجة النبوة، وهذا يسمَّى مقام القربة في الولاية.. هم رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلٰهية، في زوايا الكون، خشية أن تمتد إليهم عينٌ فتشغلهم.. فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم، الغامضون. لا يُعرفون بين الناس بكثير عبادة، ولا ينتهكون المحارم سِرًّا وعلناً»[2].

وكان الإمام الجيلاني في هذه المرحلة من حياته ملامتياً عارماً؛ وهي المرحلة التي تلت تلقيه العلم على مشايخ بغداد، حيث خرج إلى الخرائب والبوادي ليقضي فيها قرابة ربع قرن! فلنتأمل وصف ابن عربي السابق للملامتية، ثم نقرأ هذه الفقرة التي رواها الشطنوفي بالإسناد المتصل عن الإمام الجيلاني، حيث يقول:

«أقمتُ في صحارى العراق وخرابه خمساً وعشرين سنة، متجرِّداً سائحاً، لا أعرف الخَلْق ولا يعرفونني.. وكانت الدنيا وزخارفها وشهواتها تأتيني في صورٍ عجيبة، فيحميني الله من الالتفات إليها.. وما أخذتُ نفسي في حال البداية بطريق من طرق المجاهدة إلَّا

---

(١) د. أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ص ٢٠.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية، تحقيق د. عثمان يحيى، السفر الثالث، ص ١٥٤.

ولازمته. وأقمتُ زماناً في خِراب المدائن، آخذاً نفسي بطريق المجاهدات، فمكثتُ سنةً آكل المنبوذ.. وأقمتُ في خراب الكَرْخ سنين لا أقتات فيها إلا بالبردى. ودخلتُ في ألف فنٍّ حتى أستريحَ من دنياكم، وما كنتُ أُعرف إلا بالتخارس والبله والجنون.. وما هالني شيء إلا سلكته»[1].

هذه الملامتية العارمة التي أمعن فيها الإمام الجيلاني، كانت طريقاً وعراً من طرق السير إلى الله. . طريقاً لا يرتاده إلا الصفوة من العابدين، الذين استحقوا في النهاية تلك الصفات الربانية التي اختتم بها ابن عربي ذلك الفصل الذي خصَّصه للملامتية: «ثم إن هذه الطائفة، إنما نالوا هذه المرتبة عند الله، لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله، أو تقلق بكَوْنٍ من الأكوان سوى الله، فليس لهم جلوس إلا مع الله، ولا جلوس إلا مع الله. فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون»[2].

وهناك العديد من وقائع هذه المرحلة الروحية، يذكرها مؤرخو الإمام الجيلاني على لسانه، يهمنا منها هنا واقعةٌ مشهورةٌ وردت في معظم المصادر التاريخية الخاصة بالإمام. فقد رُوِيَ أن الجيلاني كان في إحدى خلواته، فانشق عن الجدار ضوءٌ شديدٌ، وسمع صوتاً يقول له: «يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أحللتُ لك المحرَّمات!» فقال الإمام: «إخسأ يا لعين. .» وبعد سنوات طويلة، سأله معاصروه عن كيفية معرفته أن هذا الصوت كان من الشيطان، فقال: «بقوله أحللتُ لك المحرَّمات». وأهمية هذه الواقعة تكمن في بيان تمسُّك المنهج الصوفي القادري بالشريعة وأحكامها في كل الأحوال، فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تسقط أحكام الشرع، مهما تعمَّق الصوفي

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٨٥ ـ التادفي: قلائد الجواهر، ص ١٢.
(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص ١٥٨.

في سيره إلى الله. وفي هذا أبلغ الرد على بعض المنتسبين للتصوف، الـذين يُسقطون الجدار الفاصل بين الحلال والحرام، بدعوى أنهم (الـواصلون) إلى الله. . فكيف يطيحُ الواصل إليه، بما قرره تعالى من شرائع! ولقد عنينا بإيراد هذه الواقعة بالذات، لتأكيـد هذا المعنى الصـوفي الكامن وراءهـا. . المعنى الذي نرى (بعض) الطرق الصوفية المعاصرة، لا تدركه.

وكان الإمام في هذه المرحلة (الملامتية) من حيـاته، يتجـوَّل في أرض الله، فيسيح في الصحارى معظم الوقت، ويـدخل بغـداد مرة بعـد مرة. وفي إحدى المرات، وقع في نفسه أن يخرج من بغداد ولا يعود إليها ـ لكثرة الفتن بها ـ بعد ذلك. يحكي الإمام:

«فـأخذتُ مصحفي وعلَّقتـه على كتفي، ومشيتُ إلى باب الحلبة (أحد أبواب بغداد) لأخـرج منه إلى الصحـراء، فقـال لي قائـلٌ: «إلى أين تمشي» ودفعني دفعـةً خـررت منها، وقال: «ارجع فإن للناس فيك منفعـة».. ثم طرقتني أحـوالٌ أُشكلت عليَّ، فكنت أتمنى على الله أن يسهِّل لي مَنْ يكشفها. فلما كانَ من الغد اجتزتُ بالمظفـرية (أحـد أحيـاء بغـداد) ففتـح رجـلٌ بـاب داره وقـال لي: يـا عبد القادر إيش طلبتَ البارحة؟ فسكتُّ ولم أدرِ ما أقولُ. فـاغتاظ مني ودفـع الباب في وجهي دفعـةً عظيمةً حتى طـار الغبار من جـوانب الباب إلى وجهي.. فلمـا مشيتُ قليلاً، تذكرتُ الذي سألت الله، ووقع في نفسي أن الرجل من الأوليـاء، فرجعت أطلب البـاب، فلم أعرفـه، فضـاق صدري.. وكان ذلك الرجـل: الشيخ حمَّـاد الدَّبَّـاس ـ ثم عرفته بعد ذلك وصحبته، وكشف لي ما كان يُشكل عليَّ»[1].

---

(١) التادفي: قلائد الجواهر، ص ١٥.

ثم ينقلب الحال بالإمام الجيلاني، فيُنقل إلى مراتب أعلى من مرتبة أولئك الملامتية. وهذه النقلة لم تحدث إلا بعد جذبةٍ شديدة:

المجـذوب:

يروي العلاَّمة الدُّميري[1] عن أبي العباس القَسْطلاني أنه قال: سمعتُ الشيخ زاهر بن رستم الأَصْبهاني ـ إمام مقام إبراهيم بمكة ـ يقول: سمعتُ الشيخ أحمد خادم الشيخ حمَّاد يقول: دخل الشيخ عبد القادر على الشيخ حمَّاد الدِّبَّاس يزوره، وكان الدِّباس قد رأى في منامه أنه اصطاد بازياً، فلما دخل الشيخ عبد القادر، نظر إليه الدِّباس نظرةً ثاقبةً، فانخلع قلبه.. وخرج من عنده هائماً على وجهه.

هذه الجذبة الروحية التي حدثت للإمام الجيلاني بفعل نظرة الدِّباس المشحونة بالروعة[2] ـ والتي عُرف بعدها الإمام بلقب: باز الله الأشهب ـ طار

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت) ١/١٠٠.

(٢) تُذكِّرنا تلك الجذبة الروحية، بالعديد من الجذبات التي وقعت لطائفةٍ من كبار أهل التصوف: فقد دخل إبراهيم بن أدهم طريق التصوف بعد سماعه لنداءٍ خفيٍّ، وهو في رحلة صيدٍ لاهيةٍ مع أقرانه من أولاد الأمراء، فإذا به يُنادى: يا إبراهيم، ألهذا خُلقت؟! فترك ما كان فيه وتزهَّد.. وكان بشر بن الحارث، المعروف بالحافي، يلهو بداره مع جمعٍ من أصحابه. فطرق الباب رجلٌ، فلما فتحت له الجارية سألها: صاحب هذه الدار حُرٌّ أم عبد؟ قالت الجارية: بل هو حُرٌّ. قال الرجل: صدقتِ، فلو كان عبداً، لحفظ آداب العبودية! فلما سمع بشر من الجارية ما دار من حوار، قام من مجلس اللهو ليلحق بالرجل، فلم يدركه، وكان آنذاك حافياً. فظل طوال عمره لا يلبس الأحذية، وكان يقول: لقد خاطبني ربي وأنا على هذه الصورة.. ويُروى أن أبا الغيث بن جميل، قطب اليمن، كان قاطع طريق؛ فسمع في ليلةٍ قارئاً يتلو الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهم لِذِكرِ ٱللهِ﴾. فترك ما كان فيه، وسار في طريق الزهد حتى صار إلى ما صار إليه.. وكان فريد الدين العطار جالساً أمام دكان عطارته، فمرَّ عليه درويشٌ وأمره أن يفتح فمه، ووضع فيه قطعة من الحلوى، فلما تذوق فريد الدين حلاوتها قام وتبع الدرويش؛ وأصبح بعد ذلك من كبار رجال التصوف.. وكان جلال الدين الرومي ـ صاحب ديوان المثنوي ـ فقيهاً يشتغل بعلم الكلام والقياس العقلي، وكان له عددٌ كبير من التلاميذ، وفي غمرة ذلك، التقى بشمس الدين التبريزي، فحدث انقلابٌ وتحوُّل في مساره الروحي، على نحو ما ذكره في إحدى رباعياته قائلاً:

عندما اشتعلتْ نيرانُ الحبِّ في صدري، =

بعدها غفل الإمام الجيلاني، حتى أنه عُرف باسم: عبد القادر المجنون. .
يقول الإمام: طرقني ذات ليلةٍ حالٌ، فصرختُ صرخةً عظيمة، فسمع العيَّارون صرختي ففزعوا من المسالحة، فجاءوا حتى وقفوا عليَّ وأنا مطروحٌ على الأرض، فعرفوني، فقالوا: هذا عبد القادر المجنون، أزعجتنا لا ذكرك الله بخير[1].

وصار الجيلاني في زمن الجذب مشدوهاً غائباً في كثير من الأحيان عن الكون، تنتابه أحوال الصعق والمحق فتأخذ بناصيته والأقدام، حتى أنه عاين ذات مرةٍ حالاً، فانطرح على الأرض كالميت؛ وجاءوا بالكفن والغاسل، وجعلوه على المغسل ليغسِّلوه تمهيداً لدفنه. . ثم سري عنه الحال.

وفي سنة ٥٢١ هجرية، جاء أوان بروز الإمام الجيلاني لأهل زمانه. وانتهت نشأته في كهف الغيرة الإلٓهية، لتبدأ نشأته الأخرى في كنف العناية؛ فخرج إلى أهل الزمان وعليه أعلام (الولاية) وله من العمر خمسون سنة. .
ونودُّ هنا، قبل التعرُّف إلى الجيلاني ولياً، أن نتلبث حيناً عند أولئك الأساتذة الذين تلقى عنهم العلوم وسلك الطريق بهديهم. . ذلك أن معرفة المحيطين بالإمام، والوقوف عند بعض معاصريه، من شأنه أن يُسهم في رؤيتنا له على نحو أفضل.

احرقَ لهيبُها كل ما كان في قلبي.
فازدريتُ العقلَ الدقيق والمدرسة والكُتَّاب،
وعملتُ على اكتساب صناعة الشعر، وتعلَّمتُ النظم.

وتحتاج هذه اللحظات العارمة التي يحدث فيها (الانقلاب الروحي) إلى دراسةٍ موسعةٍ، تكشف عن طبيعة التحولات الروحية عند كبار أئمة التصوف، وعن طبيعة ذلك المسار الذي يتخذه الواحد منهم بعد سماعه لهاتفٍ معين، أو وقوع حادثةٍ خاصة، أو حتى نظرة كتلك التي نظرها الدِّباس لعبد القادر الجيلاني.

ويغلب على ظني، أن هذه اللحظة هي بمثابة (انفجار) لعوامل روحية كامنة في نفس هذا الصوفي أو ذاك، عوامل كانت تنتظر إشارة البدء للعروج إلى المقامات الروحية العالية. .

(١) يقول التادفي في تعليقه على هذه الحكاية (قلائد الجواهر، ص ١٥): العيارون، جمع عيَّار، وهو في اللغة كثير المجيء والذهاب، وهنا هم اللصوص. والمسالحة هم العرس، لأنهم يكونون أصحاب السلاح.

شيوخ الطريق

كانت بغداد في عصر الجيلاني، زاخرةً بمن لا حصر لهم من أهل التصوف وأربابه. وهذا يعني أن الإمام لم يبرز فجأة، ولا كان نسيج وحده، وإنما كان (فرداً) من السائرين إلى الله.. ولا بد عند متابعة المنحنيات الشخصية في حياة الجيلاني الروحية، أن نتلبث حيناً عند معاصريه. ذلك أن معرفتهم تسهم في التعرُّف إليه على نحوٍ أتمّ؛ فهم (أفراد) الطريق الذي سار فيه الجيلاني.

وهناك العديد من الشخصيات الصوفية التي عاصرت الإمام ببغداد، وكانت على صلة وثيقة به؛ فمن جملتهم: محمود الكردي، بقاء بن بطو النهرملكي، عديّ بن مسافر، عليّ بن الهيتي، أبو النجيب السُّهروردي، صدقة البغدادي، محمد بن قائد الأواني، عثمان الطريفني، أحمد الصرصري.. وغيرهم[1].

ولما كان من العسير علينا هنا، أن نستعرض سائر معاصري الإمام، ووقائع اتصالهم به؛ فالمقام يضيق.. ولذا، فسوف نقتصر على سيرة أربعة

(١) المشايخ الذين ذكرناهم هنا، كانوا ضمن الحاضرين ذلك المجلس الذي قال فيه الجيلاني: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.. وهو المجلس الذي سنتوقف عنده في الفصل التالي.

منهم، كانت لهم صلة أوثق بالإمام. وهؤلاء الرجال الأربعة: اثنان منهم من شيوخ الجيلاني الذين أثَّروا فيه (الدِّبَّاس ـ المُخرِّمي) واثنان من الشيوخ الذين تربُّوا على يديه وأثَّر هو فيهم (ابن الهِيتي ـ السهروردي) فنكون بذلك قد ألقينا الضوء على بعض أساتذة الجيلاني[1]، وبعض تلاميذه[2]؛ ممن نالوا ـ في ميدان التصوف ـ شهرةً واسعةً.

الشيخ حمَّاد الدِّبَّاس:

هو الشيخ الزاهد: حمَّاد بن مسلم بن ددُّوه الدِّبَّاس الرَّحْبي، المتوفى سنة ٥٢٥ هجرية. عُرف بلقب (الدِّبَّاس) لأنه كان يعمل في مصنع للدِّبْس (الحلوى) بعد مزاولته لعدة مهن وصنائع في طلب الحلال[3]؛ أما لقبه (الرَّحْبي) فهو نسبةٌ إلى موضعٍ يُقال له: رَحْبة مالك بن طَوْق[4].

بدأ الدِّبَّاس حياته يتيماً، إذ توفي أبواه وهو في الثالثة من عمره؛ ونشأ ببغداد وسمع شيئاً من الحديث النبوي، ثم جاهد نفسه بأنواع المجاهدات الروحية، وساح في الأرض على طريقة الصوفية، والتقى بالعديد من

---

(١) اشتغل الجيلاني بالقرآن والقراءات، ثم تفقه على يد: أبي الوفاء عليّ بن عَقيل، وأبي الخطَّاب محفوظ الكلوذاني، وأبي الحسن محمد بن يَعْلى الفَرَّاء، وأبي سعيد المخرمي. وسمع الحديث النبوي من جماعة منهم: أبو غالب محمد الباقِلَّاني، وأبو سعد محمد بن خُنيش، وأبو الغنائم الرَّسِّي، وأبو القاسم الكَرْخي، وأبو عثمان الأصبهاني، وأبو محمد القاري، وأبو بكر التَّمَّار، وأبو طالب عبد القادر بن يوسف، وابن عمه أبو طاهر عبد الرحمن بن يوسف، وأبو البركات هبة الله بن المبارك السقطي.. وغيرهم؛ وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي (بهجة الأسرار، ص ١٠٦) ويلاحظ هنا أن المذكورين هنا، هم أساتذة الإمام في غير التصوف.

(٢) أفاض الشطنوفي والتادفي في ذكر تلاميذ الإمام وأتباعه ومريديه الذين لبسوا خرقة التصوف على يديه.. انظر: البهجة ص ١٠٧ وما بعدها ـ القلائد ص ٣١ وما بعدها.

(٣) ينقل ابن العماد عن الدِّبَّاس قوله: إني بالغتُ في طلب الرزق الحلال بكدِّ يميني، وعملتُ في كل شيءٍ، إلا أني ما كنتُ غلاماً لقصَّابٍ ولا لوقَّادٍ ولا لكنَّاسٍ؛ فإن هذه الحرف تؤدي إلى إسقاط المروءة (شذرات الذهب ٤/٧٤).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/٥٩٤.

المشايخ، ثم استقر أخيراً ببغداد وسكن بحيِّ المظفرية، وصار له شأنٌ كبيرٌ بين معاصريه.

وكان الدَّبَّاس ـ بعد اشتهار أمره ـ يقبل النُّذُرَ التي ينذرها الناس. ثم بلغه الحديث الشريف: «لا تنذروا، فإن النَّذْرَ لا يُغني من القَدَرِ شيئاً، وإنما يُستخرج به من البخيل»[١].. فكره أكل مال البخيل، وصار يأكل بالمنامات؛ فكان الرجل يرى في المنام هاتفاً يدعوه لإعطائه شيئاً معيناً، فيجيء الرجل إليه حاملاً ما أُمر بإعطائه في المنام[٢].. يقول ابن العماد: وكان الدَّبَّاس مسلوب الاختيار، تارة زِيُّه زيُّ الأغنياء، وتارة زيُّ الفقراء؛ متلوِّنٌ كيف أُدير ـ من الله ـ دار، وأيُّ شيءٍ كان في يده جادَ به، وكانت المشايخ بين يديه كالميت بين يدي الغاسل[٣].

ومع أن الدَّبَّاس كان أُمِّياً، إلا أنه كان صادق العبارة. وقد جمع تلاميذه مجلدات من أقواله؛ فمن هذه الأقوال: العلمُ محجَّةٌ، فإذا طلبته لغير الله صار حُجَّةً ـ إذا أحبَّ الله عبداً أكثر هَمَّه فيما فرَّط، وإذا أبغض الله عبداً أكثر هَمَّه فيما قسمه له[٤] ـ انظر إلى صُنعه تستدلُّ عليه، ولا تنظر إلى صنع غيره فتعمى عنه ـ مَنْ هرب من البلاء لا يصل إلى باب الولاء[٥] ـ أقرب الطرق إلى الله تعالى حُبُّه، وما يصفي حُبُّه حتى يبقى المحبُّ روحاً بلا نفسٍ[٦].

ورُويت كراماتٌ كثيرةٌ حول الدَّبَّاس، منها أنه رأى أميراً مخموراً، فأنكر عليه، فتطاول الأميرُ عليه وقام ليركب حصانه. فقال الدَّبَّاس: «يا فرس الله،

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم بلفظ قريب من حديث أبي هريرة.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/٢٣.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٧٤.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/٥٩٥.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٧٤.

(٦) التادفي: قلائد الجواهر ص ١٠٣.

خُـذيه». . فـانـدفعت بـه الفـرس كـالبـرق الخـاطف، ولم يَـرَ النـاس الأميـر بعدها»[1]. وأيًّا ما كان من صدق جملة تلك الكرامات، فقـد نال بهـا الدِّبَّـاس مكانة رفيعة بين معاصريه، إلا أن قلوب بعضهم امتـلأت منه حقـداً، فشنَّعوا عليـه. وكان أكثـرهم تشنيعـاً: ابن عقيـل وابن الجـوزيّ. يقـول ابن الأثيـر: ورأيتُ الشيخ أبا الفرج بن الجوزيّ قد ذمَّه وثلبه، ولهذا الشيخ أُسوة بغيره من الصالحين، فإن ابن الجوزيّ قد صنَّف كتاباً سمَّـاه (تلبيس إبليس) لم يُبق فيه على أحدٍ من سادة المسلمين وصالحيهم»[2].

وغـالباً مـا تتضمَّن ترجمـات الدِّبَّـاس عبارة: «وهـو أستـاذ عبـد القـادر الجيلاني»[3]. . كما ورد في البهجة، أن الجيلاني: صحب الشيـخ العارف، قـدوة المحققين، أبـا الخيـر حمَّـاد بن مسلم الـدِّبَّـاس، وأخـذ عنـه علم الـطريقة[4]. وهكـذا نجد ارتبـاط الـدِّبَّـاس بـالجيـلاني وَثيقـاً؛ فحيثمـا ذُكـر أحدهم، ذُكر الآخر.

وحول طبيعة العـلاقة بين الجيـلاني وشيخه، مَـرَّ علينا فيمـا سبق واقعة اللقـاء بينهما، وكيف كـان ذلك اللقـاء بهاتفٍ ربـانيٍّ تجلى على قلب الشاب الجيـلاني وهو في سنـوات التلوين وطوارق الأحـوال. كمـا مَـرَّ علينـا دخـول الجيلاني من باب الجذب، بعد تلك النظرة الثاقبة التي خلع بها الدِّبَّاس قلب الجيلاني فخرج من عنده هائمـاً على وجهه؛ ويبـدو أن الدِّبَّـاس كان مختصـاً بتلك النظرة الجاذبة الثاقبة، فقد روى الشيخ أبو النجيب السُّهروردي أنه ـ في زمن بدايته ـ أتى الدِّبَّاس واشتكى إليه كثرة المجـاهدات وبُطء الفتـح، فأمـره

---

(1) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/٦٧١.

(3) انظر ترجمـة الدِّبَّـاس في: المنتظم ١٠/٢٢ ـ الكـامل ١٠/٦٧١ ـ تـاريخ الإسـلام ٤/٢٦٦ ـ دول الإسـلام ٢/٤٧ ـ سير أعـلام النبلاء ١٩/٥٩٤ ـ العبـر ٤/٦٤ ـ تتمة المختصـر ٢/٥٩ ـ مرآة الزمان ٨/٨٥ ـ قلائد الجواهر ١٠٣ ـ النجوم الزاهرة ٥/٢٤٦ ـ شذرات الذهب ٤/٧٣.

(4) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ١٠٦.

أن يحمل قِدراً من اللبن ويمرُّ به في السوق، وهو بملابس الدرس ـ قاصداً بذلك إذهاب إعجابه بنفسه[1] ـ يقول أبو النجيب: وصار الناس يقفون وينظرون إليَّ، وكنتُ كلما خطوتُ خطوةً تذوب نفسي كما يذوب الرصاص على النار، فلما قاربتُ دكان دِبّاسة الشيخ حمّاد، رأيته واقفاً على بابه كالمنتظر لي؛ فنظرني نظرةً ملأني بها، وغاب عقلي، وسقطت على وجهي، وتبدَّد اللبن على الأرض.. وأنا إلى الآن في بركة تلك النظرة[2].

وتعد صحبة الجيلاني للدِّبَّاس مثالاً لصحبة المريد للشيخ بالمعنى الصوفي، فقد كان الجيلاني يتأدَّب معه غاية الأدب، ويحفظ حرمته ويُعلي قدره مهما فعل معه من قسوة. وقد بلغت قسوة الدِّبَّاس أنه كان يعبر معه قنطرة، وكان الوقت ليلاً والزمان شتاءً، فإذا بالشيخ حمَّاد يدفعه في الماء! كانت ليلة جُمُعة، فقال الجيلاني: «نويت غُسْل الجمعة» ثم توضَّأ وقام لصلاة الفجر. كما كان الدِّبَّاس يتعمَّد الإساءة إليه كلما رآه، ويقول: «ما الذي أتى بك من درس الفقه، اذهب إلى الفقهاء فأنت منهم»[3] ولما رأى تلامذة الدِّبَّاس ذلك، ظلُّوا يؤذون الجيلاني وهو محتملٌ أذاهم؛ فعرف الدِّبَّاس ذلك فانتهرهم: «يا كلاب، إنما أفعلُ معه ذلك لأختبره، فأراه كالجبل».

ثم صار الدِّبَّاس يقوم للجيلاني كلما جاء إليه، ويرحِّب به قائلاً: «مرحباً بالجبل الراسخ والطود المُنيف الذي لا يتحرك». وسأله مرَّة في المجلس: ما الفرق بين الحديث والكلام؟[4] قال الجيلاني: الحديثُ ما

---

(١) قام الصوفي المشهور، محمد بن عبد الحق بن سبعين، بإجراء مماثل مع تلميذه أبي الحسن الشُشْتَري، كي يُذهب عنه غرور نفسه (راجع كتابنا: شعراء الصوفية المجهولون).

(٢) بهجة الأسرار ص ١٤٤.

(٣) نظر الصوفية إلى العلم الفقهي على أنه يقلُّ درجةً عن العلم الوهبي، فكانوا يطلقون على الفقه (علم الظاهر) في مقابل معارفهم اللدنية (علم الباطن).

(٤) الحديث والكلام من أدق المصطلحات الصوفية، تأمَّل إجابة الإمام الواردة هنا.

استدعيتَ من الجواب (الإلّهي) والكلام ما صدمك من الخطاب؛ وانزعاجُ القلب لدعوة الانتباه أرجحُ من أعمال الثقلين.. قال الدِّبَّاس: أنت سيد العارفين في عصرك.

وتروي المصادر أن الدِّبَّاس تنبَّأ بعلو شأن الجيلاني في ميدان التصوف، فقد نقل الشطنوفي أنه: «ذُكر الجيلاني وهو يومئذٍ شابٌ، عند الشيخ حمَّاد فقال عنه: رأيتُ على رأسه عَلَمين للولاية وقد نُصبا له من البَهَمُوت الأسفل إلى المَلَكُوت الأعلى، وسمعتُ الشاؤوس[1] يصيح له في الأفق الأعلى بألقاب الصدِّيقين»[2].

وأخيراً، فخير ما نختتم به هذا العرض الموجز لعلاقة الجيلاني بالدِّبَّاس، هو عبارة سِبْط ابن الجوزي: لو لم يكن لحمَّاد من الفضائل التي اتَّصف بها في زهادته وطريقته ومكاشفته، إلا أن الشيخ عبد القادر الجيلاني أحد تلامذته، لكفى[3].

الشيخ أبو سعد المُخَرِّمي:

هو شيخ الحنابلة ببغداد، العلَّامة: أبو سعد (سعيد) المبارك بن علي بن الحسن بن بندار المُخَرِّمي، المتوفى - بإجماع المؤرخين[4] - سنة ٥١٣ هجرية، بعد أن طعن في السِّنِّ.

والمُخَرِّمي لقبٌ مشهور، عُرف به العديد من العلماء البغداديين المشاهير[5]، وهو نسبةٌ إلى (محلَّة المُخَرِّم) الواقعة بشرقي بغداد، نزلها

(١) الشاؤوس: لفظة صوفية اصطلاحية، تشير إلى حاجب الولايات.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ١٤٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٨٦ - التادفي: قلائد الجواهر ص ١٠٣.

(٤) انظر ترجمته في: طبقات الحنابلة ٢/٢٥٨ - المنتظم ٩/٢١٥ - تاريخ الإسلام ٤/٢١٢ - العبر ٤/٣١ - سير أعلام النبلاء ١٩/٤٢٨ - مرآة الزمان ٨/٥٤ - البداية والنهاية ١٢/١٨٥ - ذيل طبقات الحنابلة ١/١٦٦ - قلائد الجواهر ٢٣ - شذرات الذهب ٤/٤٠.

(٥) من العلماء الملقَّبين بالمُخَرِّمي، غير المبارك بن علي: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله =

بعض أولاد يزيد بن المُخرِّم، فسُمِّيت به[1].

عاش المُخرِّمي حياة العلماء، فبدأ بدراسة الفقه الحنبلي على يد القاضي أبي يَعْلى، ثم على يد الشريف أبي جعفر بن أبي موسى، والقاضي يعقوب بن سُطورا البَـرْزبيني، فلازم الأخيرين حتى برع في الفقه الحنبلي وساد[2]. وروى الحديث النبوي عن أبي جعفر بن المسلمة، وأبي الغنائم بن المأمون، وأبي يعلى، وابن المهتدي، والصريفيني، وابن النَّقُور، وغيرهم[3].

ويصف المؤرخون أخلاق المُخرِّمي بأجمل الأوصاف، فهو النزيه العفيف، حَسِن السيرة جميل الطريقة سديد الأقضية.. الخ. كما يُشير بعضهم إلى أنه كان شغوفاً بالكتب، وأنه جمع قدراً كبيراً من الكتب، وضعها في مدرسته التي بناها بباب الأزج، والتي سيتولاها من بعده الإمام الجيلاني، أشهر تلاميذه.

ويقصُّ الجيلاني قصة اللقاء الأول مع المُخرِّمي، فيقول: أقمتُ في البرج المُسمَّى الآن ببرج العجميّ إحدى عشرة سنة، ولطول إقامتي فيه سُمِّيَ برج العجمي[4]؛ وكنتُ بايعتُ الله تعالى فيه أن لا آكل حتى أُلقم، ولا أشرب حتى أُسقى.. فسمعت صارخاً من باطني ينادي الجوع، فلم أرتع له. فاجتازني أبو سعيد المُخرِّمي، فسمع الصوت الصارخ من باطني، فدخل عليَّ وقال: ما هذا يا عبد القادر؟ قلت: هذا قلق النفس، أما الروحُ فساكنة في

البغدادي ـ أبو الفضل أحمد بن ملاعب البغدادي ـ عبد الله بن جعفر المدني ـ عبد الله بن محمد البغدادي ـ أبو جعفر محمد القرشي البغدادي..

(١) وقع تصحيف في لقب المُخرِّمي ببعض المصادر، فكُتب: المخزومي.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/٤٢٨.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٤١.

(٤) يلاحظ هنا أن الإمام الجيلاني كان يُعرف في زمن بدايته باسم (العجمي) نظراً لأنه وفد على بغداد من (جيلان) التي تعدُّ من بلاد العجم.

مـولاها عـزَّ وجلّ. فقـال لي: تعـالَ إليَّ ببـاب الأزج. فقلت في نفسي: مـا أخـرجُ من هذه، إلا بـأمر. . فجـاءني الخِضْرُ ـ عليـه السلام ـ وقـال لي: قُمْ وانطلِقْ إلى أبي سعيد. فذهبتُ إليه، فإذا هو واقفٌ على بـاب داره ينتظرني، وقال لي: ألم يكفك قـولي تعالَ إليَّ! ثم ألبسني الخِـرقة بيـده، ولازمتُ بعد ذلك الاشتغال عليه رضي الله عنه[1].

تلك هي قصة اللقاء كما رواها الشطنوفي والتادفي، والعهدة فيهـا على الرواة. أما الثابت، أن الجيلاني قد تتلمذ بالفعل على المُخرِّمي. وأنه: أخـذ عنـه علم الطريقـة، وتأدَّب بـه، ولبس الخرقـة الشريفـة من يـدها[2]. . ولبس الجيلاني (خِرْقَة الصُّوفية)[3] من يد المُخَرِّمي، يجعله حلقة من سلسلة صوفية متصلة، ويجعلنا نتوقف عند (إسناد) الطريقة القادرية، وهو الإسناد الذي ورد بعدة مصادر ـ باختلافاتٍ طفيفة ـ ويمكن أن نعتمد في بيان هـذا الإسناد على السلسلة التي ذكرها قادريٌّ كبير، هو الشيخ عبد الغني النابلسي المتـوفى سنة ١١٤٣ هجرية؛ على النحو التالي:

«تلقَّى السيـد عبـد القـادر خـرقـة العلم الإلٰهي والتحقيق، من الشيـخ الصـالح أبي (سعـد) المبارك بن علي (المُخـرِّمي) البغدادي، وهـو تلقَّى عن شيخ الإسلام أبي الحسن علي بن محمـد الهكَّاري. . عن الشيـخ أبي الفرج الـطرسوسي. . عن أبي الفضـل التميمي. . عن أبي بكـر الشبلي. . عن أبي القاسم الجُنَيْد. . عن سَرِيِّ الدين السَّقَـطي. . عن معروف الكَـرْخي. . عن داود الـطائي. . عن حبيب العجمي. . عن الحسن البصـري. . عن علي بن أبي طالب. . عن النبي ﷺ»[4].

---

(١) التادفي: قلائد الجواهر ص ٢٣.
(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦.
(٣) خرقة الصوفية: رداء يرمز لدخول المريد في طريقة صوفية معينة.
(٤) النـابلسي: الحقيقة والمجـاز في الرحلة إلى بـلاد الشام ومصـر والحجاز (مخـطوط، بتقـديم د. أحمد هريدي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦)، ص ٤٩.

وينبغي هنا أن نلاحظ مسألةً دقيقةً، وهي أن إسناد الطريقة القادرية على النحو السابق لا يعتمد فقط على إلباس الشيخ الخِرْقة لمريده، وإنما أيضاً على الصحبة والتلقي. وذلك من حيث أن الشِّبْلي (أبو بكر دَلَف بن جَحْدر، المتوفى سنة ٣٢٠ هجرية) كان أول مَنْ قام بإلباس مريديه خِرْقة معينة[1]؛ أما قبل ذلك فلم يكن هذا الإجراء معروفاً كعلامة على دخول الطريق.

ويتبقى في العلاقة بين الجيلاني والمُخرِّمي إشكالٌ تاريخيٌّ؛ فإذا كانت وفاة المُخرِّمي سنة ٥١٣، وبداية تولي الجيلاني لمدرسته سنة ٥٢١ هجرية. فما هو الحال في السنوات الواقعة بين هذين التاريخين؟

الراجح أن الجيلاني قضى هذه السنوات الممتدة من وفاة شيخه المخرمي إلى وقت توليه المدرسة، في صحبة حمَّاد الدِّبَّاس.. حتى جاء أوان بروز الإمام الجيلاني في ثوب العالم الفقيه المفتي، فهنا كانت مدرسة المُخرِّمي هي أليق الأماكن بإقامته.. ثم قام الجيلاني بتوسعتها سنة ٥٢٨ هجرية، وصارت تُنْسب إليه.

والآن، عرفنا شيوخ الجيلاني، فبقي أن نعرف تلاميذه الذين صاروا بعد حينٍ شيوخاً:

عليّ بن الهِيتي:

لم ينل عليّ بن الهِيتي من عناية المؤرخين الشيء الكثير، وربما كانت الفقرات التي أوردها عنه الشطنوفي والتادفي، هي أوفى ما كُتب عنه. ولنترك صاحب البهجة يصفه:

= ويوجد إسناد الطريقة القادرية بعدة مراجع، منها: البهجة ـ القلائد ـ الفيوضات الربانية ـ جامع الأوراد.. الخ.

(١) د. كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ص ٤٣٠.

هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين وأئمة المحقِّقين، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة والأحوال الجلية والمقامات السنية والهمم العلية. . وهو أحد أركان هذه الطريقة وأعلام علمائها ورؤساء القادة إليها علماً وعملاً وحالاً وزهداً وتحقيقاً. . وهو أحد مَنْ يذكر عنه القطبية. . وهو الذي أتاه الخطاب: يا مَلَكي تصرَّف في مُلْكي، واشتهر عنه أنه مكث ثمانين سنة ليس له خَلْوة[1] ولا معزل، بل ينام بين الفقراء. وهو أحد مَنْ أظهره الله تعالى إلى الخلق وأوقع له عندهم القبول التامّ[2].

وبعد هذا التقديم (الهائل) من قِبَل الشطنوفي، نراه وقد ترك العنان الجامح، هو والتادفي الذي نقل عنه، وراح يسرد من كرامات عليّ بن الهيتي ما تنوء بحمله العقول؛ ومع ذلك لم يقدم لنا الكثير من المعلومات حول الرجل!

لكننا نستطيع أن نستخلص من الفقرات، بعض الحقائق عن الهِيتي وطبيعة صلته بالإمام الجيلاني. وأول ما يبدو من ذلك أنه لم يكن يعيش ببغداد، بل كان يقيم بقرية تُسمَّى (زَرِيران) من أعمال نهر الملك؛ وأنه ظل مقيماً بها إلى أن توفيِّ سنة ٥٦٤ هجرية، وقد بلغ من العمر ما يزيد على مائة وعشرين سنة[3].

والراجح أن الشيخ عليّ بن الهِيتي لم يكن تلميذاً للإمام الجيلاني بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما كان أقرب إلى التابع أو المحبِّ. ففي إحدى عباراته، نراه يقول للإمام: «أنا وجميع أصحابي غلمانك» وهي عبارة تشير إلى أن الهِيتي كانت له مجموعة من المريدين وهو بصحبة الإمام

(١) الخلوة عند الصوفية، هي إحدى الرياضات الروحية التي يتفرغ فيها الصوفي للعبادة.
(٢) بهجة الأسرار ص ١٥٣.
(٣) بهجة الأسرار ص ١٥٣ ـ قلائد الجواهر ص ١١٤.

الجيلاني. وهذا ـ من وجهة النظر الصوفية ـ لا ينطبق على المريد والتلميذ، وإنما يجوز في حق المحب التابع.

ومع ذلك، فقد ورد أنه: لم يكن أحدٌ من المشايخ الذين عاصروا الإمام الجيلاني، كان أكثر تردُّداً عليه وخدمةً ووداً له، من الشيخ عليّ بن الهِيتي.. وأنه: كان إذا خرج من زَرِيران ومعه أعيان أصحابه، لزيارة الإمام الجيلاني، يستوقفهم عند نهر دجلة ويأمرهم بالاغتسال والوضوء ـ وربما اغتسل معهم ـ ثم يقول لهم: نَقُّوا قلوبكم، واحفظوا خواطركم؛ فإنَّا نريد أن ندخل على السلطان.. فإذا وصل إلى باب مدرسة الجيلاني، يخلع نعليه ويقف حتى يناديه الإمام، فيدخل هو ومن معه[1].

وكان الإمام الجيلاني كثير الاهتمام بالهِيتي والاحترام له، وكان يجلسه دوماً إلى جواره.. ومع ذلك، فقد كان الهيتي أول مَنْ سارع إلى الانقياد للإمام حين قال (قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله)[2] فقام وصعد إلى الإمام وأخذ قدمه وجعلها على عنقه[3].

ونال عليّ بن الهيتي شهرة واسعة، وتخرَّج على يديه جماعة كبيرة من الصوفية ـ منهم عليّ بن إدريس اليعقوبي ـ وحفظت من أقواله الذوقية نُقُولٌ كثيرة، منها قوله: «الشريعةُ ما ورد به التكليف، والحقيقةُ ما حصل به التعريف؛ فالشريعة مؤيَّدةٌ بالحقيقة، والحقيقة مقيَّدةٌ بالشريعة».. وقوله: «ما دام التمييز باقياً، كان التكليف متوجباً؛ وعلامه صحة الحال، أن يكون صاحبه محفوظاً في أحوال غلبته (يؤدي الفرائض).. وقوله: «الحقُّ (تعالى) وراء ما أدركه الخلق بأفهامهم؛ وكل مَنْ كُوشف بشيءٍ، فعلى قدر قوته أو ضعفه».. وكان ـ رحمه الله ـ دائم التمثُّل بهذه الأبيات:

---

(١) المرجعان السابقان، ص ١٥٦ ـ ١١٤.
(٢) انظر ما سنقوله عن ذلك في الفصل التالي.
(٣) بهجة الأسرار ص ١١.

إنْ رُحْتُ أَطْلُبُـهُ لا يَنْقَضِي سَفرِي ... أَوْ جِئْتُ أَحْضُرُهُ أَوْحَشْتُ مِنْ حَضَرِي

فَمَـا أَرَاهُ وَلاَ يَنْفَـكُّ عَـنْ نَظَـرِي ... وَفِي ضَمِيرِي وَلاَ أَلْقَاهُ فِي عُمُرِي

فَلَيْتَنِي غِبْتُ عَنْ حِسِّي بِـرُؤْيَتِـهِ ... وَعَنْ فُؤَادِي وَعَنْ سَمْعِي وَعَنْ بَصَرِي

شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي:

على النقيض من الشيخ عليّ بن الهِيتي، نال السُّهْـرَوَرْدي قـدراً كبيـراً من اهتمـام المؤرخين ومؤلفي كتب التراجم. وتكفي نـظرةٌ واحدةٌ إلى قـائمـة ترجماته، كي يظهر لنا قدر الاهتمام التأريخي به[1].

وهنـاك اثنـان من المشـاهيـر في عـالم التصـوف، يعـرفـان بـالشهـاب السُّهروردي، وكثيراً ما يقع الخلط بينهما.. الأول: شهاب الدين السُّهروردي (أبو الفتوح يحيـى بن حَبْش بن أميرك، المتوفى سنـة ٥٨٦ هجريـة) والآخر: شهـاب الدين السُّهـروردي (عمر بن محمـد بن عبد الله، المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية) وهكذا يقع الخلط لأنهما: صوفيَّـان، ويعرفـان بنفس الكُنية واللَّقب. وللتمييـز بينهما، يمكن أن نُـطلق على الأول (صاحب حكمـة الإشراق) أمـا الآخـر، فهـو (صـاحب عـوارف المعـارف) وكـلاهمـا كتـابٌ من أشهـر كتب التصـوف.. وعلى أية حـالٍ، فإن مـرادنا هنـا هـو: شهـاب الـدين عمـر بن محمد بن عبد الله، صاحب العوارف.

---

(١) من ترجمات السُّهروردي التي ذُكرت في هـامش سير أعـلام النبلاء: معجم البلدان ٣/٢٠٤ ـ تـاريـخ ابن الـدبيثي (مخـطوط) ـ مـرآة الـزمـان ٨/٦٧٩ ـ تكملة المنـذري ٣/٢٥٦٥ ـ ذيـل الروضتين ١٦٣ ـ أخبار الزهاد لابن السـاعي (مخطوط) ـ وفيـات الأعيان ٣/٤٤٦ ـ الحـوادث الجـامعة ٧٤ ـ تـاريخ الإسـلام للذهبي (مخطوط) ـ العبـر ٥/١٢٩ ـ المختصر المحتـاج إليـه (مخـطوط) ـ دول الإسلام ٢/١٠٣ ـ المستفـاد للدميـاطي (مخـطوط) ـ نثـر الجمـان للفيـومي (مخـطوط) ـ طبقـات السبكي ٥/١٤٣ ـ طبقـات الأسنـوي (مخـطوط) ـ البـدايـة والنهـايـة ١٣/١٣٨ ـ العقد المذهب لابن الملقن (مخطوط) ـ طبقات الأوليـاء لابن الملقن (مخطوط) ـ نزهة الأنام لابن دقماق (مخطوط) ـ الفلاكة والمفلوكون (مخطوط) ـ النجوم الـزاهرة ٦/٢٨٣ ـ مجـالس العشاق (بـالفارسيـة) ـ قلائـد الجواهـر للتادفي ١١١ ـ مجـالس المؤمنين للشوشتـري (بالفارسية) ـ شذرات الذهب ٥/١٣٥ ـ طرائق الحقائق (بالفارسية).

ولما كـان الـذهبيّ من أكثـر مؤرخي الإسـلام اعتـدالاً، ومن أحسنهم عـرضاً لتـراجم الرجـال؛ فسوف نتـرك له مهمـة تعريفنـا بالسُّهـروردي. يقول الذهبيّ:

هو الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهـد العارف المحـدِّث شيخ الإسلام أوحـد الصوفيـة، شهاب الـدين أبو حَفْص وأبـو عبـد الله عمر بن محمـد بن عبـد الله.. بن محمـد بن أبي بكـر الصـديق، القـرشي التَّيْمي البَكْـري السُّهْرَوَرْديُّ الصوفي البغدادي. ولد في رجب سنة تسع وثلاثين وخمس مائة، وقَـدِمَ من سُهْـرَوَرْد[1] وهـو شـابٌ أمـردُ، فصحب عمـه الشيـخ أبـا النجيب السُّهروردي ولازمه وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصـوف، وصحب قليلاً الشيـخ عبد القادر.. حدَّث عنه ابن نُقْطة وابن الدُّبيثي وابن النجار والضياء والقُوصي وابن النـابلسي والزِّنجـاني وابن عَلَّان وابن الـزين والـواسـطي والأَبْـرَقُـوهي، وآخرون.

قُتل أبوه بسُهْرَوَرْد وله ستة أشهر، في فتنةٍ.. وصار شيـخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسـة في تربيـة المريـدين؛ سمع ثم لازم الخلوة ثم عقد مجلس الوعظ بمدرسة عمـه، فكان يتكلَّم بكـلامٍ مفيدٍ من غيـر تزويقٍ، ويحضر عنده خلقٌ عظيمٌ، وظهر لـه القبول من الخـاص والعام واشتهـر اسمه وقُصِدَ من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خَلْقٍ من العُصاة فتابوا، ونُفِّـذ رسـولاً (للخليفة) إلى الشـام مرات، وإلى السلطان خـوارزم شـاه، ورأى من الجاه والحرمة ما لم يره أحد.

وكان تامَّ المروءة، كبير النفس، ليس للمال عنده قَدْرٌ، حصل لـه ألوفٌ

---

(١) يقـول ياقـوت الحموي: سُهْـرَوَرْد بلدةٌ قريبـةٌ من زِنجان بـالجبـال، خـرج منهـا جمـاعـةٌ من الصالحين والعلماء، منهم.. وشهاب الدين السهروردي، قدم بغداد وتقدَّم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله، حتى جعله مقدَّماً على شيوخ بغداد وأرسله في الرسـائل المعـظمة، وصنَّف كتاباً سمَّاه عوارف المعارف (معجم البلدان ٣/ ٢٩٠).

كثيرة فلم يَدَّخر شيئاً، ومات ولم يخلِّف كفناً. وكان مليح الخَلْق والخُلُق، متواضعاً، صنَّف في التصوف كتاباً شرح فيه أحوال القوم.. وكان شيخ العراق في وقته[1].

ويعدُّ (عوارف المعارف) من أفضل الكتب التي وضعت بالعربية كي توضح المفاهيم الخاصة بالطرق الصوفية وتشرح مصطلحات التصوف وتُرسي معانيه على قاعدة راسخة من الكتاب والسنَّة، بعيداً عن تهويل الجهال وتهوين المعترضين. وللسُّهروردي شعرٌ ذوقيٌّ رقيقٌ، منه قوله:

وَقَائِلَةٍ لِي نِمْتَ لَيْلَةَ وَصْلِنَا ... فَقُلْتُ لَهَا لاَ عِلْمَ لِي بِرِضَاكِ

وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَيْلَةُ الرِّضَى ... سَهِرْتُ اللَّيَالِي كُلَّهَا لِلِقَاكِ

عَسَى لَيْلَةً أُخْرَى تَمُرُّ بِحَيِّنَا ... وَيَهْجَعُ قَلْبِي مِنْ أَلِيمِ جَفَاكِ[2]

ويهمُّنا هنا علاقة السُّهروردي بالإمام الجيلاني، وهي علاقةٌ كانت على قِصر مدَّتها، عميقة الأثر في نفس السهروردي. ولم تكن تلك العلاقة مباشرة، أعني أن السهروردي لم يكن من مريدي الجيلاني الملازمين له، وإنما كان يتردَّد عليه بصحبة عمه أبي النجيب السهروردي ـ الذي كان شديد الحب للجيلاني ـ فكان يحضر معه مجلس الإمام وينهل من علومه وأذواقه.

ويُروى أن السُّهروردي حضر المجلس الذي قال فيه الإمام (قدمي هذه..) لكنه كان صغيراً جاء بصحبة عمه.. لكنه عاد بعد سنوات، وجرت بينه وبين الإمام واقعةٌ، لولاها، ما كان السهروردي قد وصل إلى ما وصل إليه من علو الشأن. يحكي شهاب الدين هذه الواقعة فيقول:

اشتغلتُ وأنا شابٌ بعلم الكلام، وحفظتُ فيه كتباً وصرت فيه فقيهاً؛ وكان عمي (أبو النجيب) يزجرني عنه، ولا أزدجر. فأتى يوماً وأنا معه إلى

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، المجلد الثاني والعشرون، من ص ٣٧٣ إلى ٣٧٧.

(٢) التادفي: قلائد الجواهر ص ١٤٠.

زيارة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، فقال لي: يا عمر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1] وها نحن داخلون على رجلٍ يخبر قلبه عن الله عزَّ وجلَّ، فانظر كيف تكون بين يديه لتنال بركات رؤيته. فلما جلسنا إليه قال له عمي: يا سيِّدي، هذا ابن أخي عمر، مشتغلٌ بعلم الكلام، وقد نهيته فلم ينته. فقال لي الشيخ عبد القادر: يا عمر، أيَّ كتابٍ حفظت فيه؟ فقلتُ الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني.. فمرَّ بيده على صدري، فوالله ما نزعها وأنا أحفظ من تلك الكتب لفظةً، وأنساني الله جميع مسائلها، ولكن وقَّر الله تعالى في صدري العلم اللَّدُني.. وقال لي:

يَا عُمر، أَنتَ آخِرُ المَشهُورِين بِالعِرَاق[2].

(١) سورة المجادلة، آية ١٢.

(٢) بهجة الأسرار ص ٣٢.

مرتبة الولاية والقُطْبية

بدو الشأن:

بدأت أعلام الإمام الجيلاني ترتفع في سماوات الولاية، مع توليه مدرسة شيخه أبي سعيد المخرمي؛ وكان ابتداء ارتقائه المنبر (قبل الظهر من يوم الثلاثاء، السادس عشر من شوال سنة ٥٢١ هجرية) وله آنذاك من العمر، قرابة الخمسين سنة[١]. ويؤرخ الإمام الجيلاني ـ بحسب رواية المترجمين له ـ لبدء اشتهار أمره، فيقول: «نُوديتُ في سِرِّي: يا عبد القادر، أُدخل بغداد وتكلَّم على الناس. فدخلت بغداد، فرأيت الناس على حالةٍ لم تعجبني، فخرجت من بينهم. فنوديتُ ثانية: يا عبد القادر، أُدخل وتكلَّم على الناس، فإن لهم بك منفعة. فقلتُ: ما لي وللناس، عليَّ بسلامة ديني. فقيل لي: ارجع، ولك سلامة دينك[٢].. ورأيتُ رسول الله ﷺ فقال لي: يا بني، لِمَ لا تتكلَّم؟ فقلت: يا أبتاه، أنا رجلٌ أعجميٌّ، كيف أتكلَّم على فصحاء بغداد.. قال لي: تكلَّم وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. فصليتُ

(١) بهجة الأسرار ص ٩٠ ـ فوات الوفيات ٢/٤ ـ الكامل في التاريخ ٩/٩٤ ـ قلائد الجواهر ص ١٦.. وانظر أيضاً: Encyclopedia of Islam Vol. I p.170.

(٢) التادفي: قلائد الجواهر ص ١٦.

الظهر، وحضرني خلقٌ كثيرٌ . . فقلت[1]:

غَوَّاصُ آلفِكْرِ يَغُـوصُ فِي بَحْرِ آلقَلْبِ عَلَى دُرِّ آلمَعَـارِفِ، فَيَسْتَخْرِجُهَا إِلَى سَاحِلِ آلصَـدْرِ، فَيُنَادِي عَلَيْهَـا سِمْسَارُ تُرْجُمَانِ آللِّسَانِ، فَتُشْتَرَى بِنَفَـائِسِ أَثْمَانِ حُسْنِ آلطَّـاعَةِ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ آللَّهُ أَنْ تُرْفَع.

ثـم أنشـد:

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ آلمَـرْءُ نَفْسَهُ وَيَحْلُـو لَهُ مُـرُّ آلمَنَايَـا وَيَعْذُبُ[2].

وانتظم مجلس الإمام، فكان يجتمع عنـده أفرادٌ من النـاس أول الأمر؛ ثم طارت شهرة باز الله الأشهب في الآفاق، فراح الناس ينسلون لمجلسه من كل حدب وصـوب، فيستمعون إلى كـلامه الـذي ما ثَنَّـاه قط، ولا كرَّره، ولا نطق به إلا بالفتح . . بل، على حدِّ قوله:

كَانَ آلكَلَامُ يَزْدَحِمُ عَلَى قَلْبِي، فَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ، أَكَادُ أَخْتَنِقُ[3].

واقتضى الأمـر توسعـة المدرسـة، فكان البنـاؤون يتبرعـون بجهـدهم، والأغنيـاء بمالـهم، حتى صـارت المدرسـة كافيـة لـطلبـة العلم[4]. ولم تكن المدرسة هي المحل الوحيـد لدروس الإمـام، وإنما كـان يخصِّص لها صبـاح الجمعة ومساء الثلاثاء، ثم يلقي درس الأحد بالرِّباط الصوفي المجاور لهـا[5]ـ وقد سُميت قُبَّة الرِّبَاط بقُبَّة (الأولياء) لكثرة مَنْ كانوا يترددون على الإمام من

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٢٥.

(٢) كان الإمام الجيلاني دائم الترديد لهذا البيت. . وليلى هنا، ترمز إلى جمال الذات الإلٓهية.

(٣) اليافعي: خلاصة المفاخر، ورقة ٨١ أ.

(٤) كانت المدرسة قبل تولية الجيلاني لها تُعرف بمدرسة المخرمي، وكانت تقع بـالقرب من أحـد أبواب بغداد (باب الأزج). . وهي تُعرف اليوم باسم (الحضرة الجيلانيـة) ويُعرف البـاب بباب (الشيخ) نسبةً إليه.

(٥) جُمعت مجالس الإمام في عدة كتب؛ انظر الفصل التالي.

أهـل الله[1] ـ ويبالـغ الرواة الـذين استشهـد بهم الشـطنـوفي والتـادفي، حين يقولون إن عدد الحاضرين مجلس الإمام، كان يصل إلى (سبعين ألفـاً) ومهما يكن من أمر هذه المبالغة، فإنها تفيد أن عدداً كبيراً كان يحضر المجلس.

وفي هذه المرحلة، يبـدو لنا الإمـام وقد تـزيَّا بـرداء الولايـة. وهو رداء الكاملين من الصوفية، الذين عبـروا مراحـل التلقي ولوم النفس، إلى مـراتب الإلقـاء وصون الأنفـاس. ولنتـأمـل رداء الـولايـة، من خـلال وصف الخِضْـر المُوصلي الذي يقول: «خدمتُ سيِّدي عبد القادر ثلاث عشرة سنة، فمـا رأيته فيها يتمخَّط ولا يتنخَّم، ولا قعدتْ عليه ذبابةٌ[2]، ولا قام لأحدٍ من العظمـاء، ولا أَلَمَّ ببــاب ذي سلطان.. وكـان يـرى الجلوس على بســاط الملوك ومَنْ يليهم، من العقوبات المعجلة»[3] وسـألوه مـرة: علىٰ ماذا بنيتَ أمـرك؟ قال: على الصدق.

وظل الإمام يترقَّى في مراتب الولاية، حتى وصـل إلى القطبيـة.. وهي مرتبةٌ من أعلى المـراتب التي يمكن أن يصل إليهـا السالكـون إلى الله، وفيها تكون الرياسة للقـطب على سائـر الأولياء. وذات مـرة، كان الإمـام على منبر الرباط، فقال:

قَدَمِي هَذِهِ عَلَى رَقَبَةِ كُلِّ وَلِيٍّ لِلَّهِ.

وطأطأ كل الأولياء الحاضرين ـ وقيل غير الحاضرين ـ رؤوسهم تصـديقاً واعترافاً بهذه العبارة التي ما تفوَّه بها خلال تـاريخ التصـوف كلِّه، غير الإمـام الجيـلاني! وظلت هذه العبـارة مرتبـطة بالإمـام، حتى أننـا نجـد العـديـد من المؤرخين يشيرون إليه بقولهم: الشيخ عبد القادر القائل قـدمي هذه.. الـخ.

---

(١) التادفي: قلائد الجواهر ص ٧٣.

(٢) سُئل الإمام: لماذا لا يقع الذباب على ثيابك؟ فقال: ما عندي شيء من دِبْس (حلوى) الدنيا، ولا عسل الآخرة!

(٣) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٦.

وقد كانت ـ أيضاً ـ باعثاً حدا بالشطنوفي إلى تأليف أشهر ترجمات الإمام (كتاب بهجة الأسرار) حيث ابتدأ بقوله: «.. وبعدُ فإني كنتُ سُئلت أن أجمع ما وقع لي في قول شيخنا.. قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، إذ هي يتيمة عقد الزمان، وفريدة سلك البيان، ومنزلة عزٍّ انفرد بها قائلها. فاستخرتُ الله تعالى وأجبتُ السائل.. وسميته: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار» ثم راح الشطنوفي بعد ذلك يسرد تفاصيل المجلس الذي قيلت فيه العبارة، والأولياء الحاضرين الذين سلموا للإمام بالقطبية عليهم؛ كما أفرد فصلاً للذين حنوا رؤوسهم عند سماعها (في شتى بقاع الأرض!).. وأيًّا ما كان، فالمراد بالعبارة: إثباتُ علو مقام الإمام على سائر الأولياء، وحلوله بالمرتبة التي ستُعرف عند ابن عربي وعبد الكريم الجيلي ـ وغيرهما ـ بمرتبة: الإنسان الكامل.

المهم؛ أن الإمام ظلَّ يدعو إلى الله قرابة أربعين سنة، في وقتٍ غرقت فيه البلاد ببحر الغواية والبعد عن الهداية. ولقد ظلَّ أهل العراق يتلقون زخَّات وعظه الملتهبة، وهو على منبر التمكين ببغداد، فقضَّ مضجع سُباتهم الدنيويّ، وفتَّح عيونهم الوَسْنى على حقائق التوحيد ودقائق العلم ورقائق التجريد والتفريد، منتشلاً إياهم من نهر الهوس، ليحطَّ مراكبهم على شطِّ محيط الهدى.. فأسلم على يديه خَلْقٌ كثير من أهل الديانات، وتاب ببركته ألوف المسلمين.

إحياء الدين:

تعرَّضت المصادر التاريخية لحركة الإحياء التي قام بها الإمام في عصره، ورُويت العديد من وقائع هذه الحركة التي كانت (التوبة) من أبرز ملامحها. فقد فتح باب التوبة على مصراعيه أمام الخلق؛ وكان يفرح بتوبة الشباب، فإذا تقدَّم له أحدهم ليتوب قال له:

«يَـا هَذَا، مَـا قُمْتَ حَتَّى أَقَامُـوكَ، وَلَا أَقْبَلْتَ حَتَّى قَبِلُوكَ، وَلَا جِئْتَ حَتَّى طَلَبُوكَ..».

ويظل يؤنسه برقيق الكلام كي تطمئن روحه، لما في التوبـة المبكرة من خيرٍ وصحة بداية. . وإذا جاءه شيخٌ ليتوب، اشتدَّ في الخطاب قائلاً له:

«أَخْطَـأْتَ وَأَبْطَأْتَ وَأَسَـأْتَ وَأَنْسَـأْتَ، كُلَّمَـا فَسَحْنَـا لَـكَ الْمَهْلَ، أَطَلْتَ الأَمَلَ وَأَسَأْتَ الْعَمَلَ. كُلَّمَـا كَبُرَ سِنُّـكَ، تَمَرَّدَ جِنُّكَ. هَجَرْتَنَا فِي الصِّبَا وَعَذَرْنَاكَ، وَبَارَزْتَنَا فِي الشَّبَـابِ وَأَمْهَلْنَاكَ، فَلَمَّا قَاطَعْتَنَا فِي الْمَشِيبِ مَقَتْنَاكَ؛ أَقْبَحُ مَنْظَـرٍ يُـرَى يَـوْمَ الْقِيَـامَـةِ: ذُو شَيبَـةٍ بَيْضَـاء بِيَـدِهِ صَحِيفَـةٌ سَوْدَاء»[1].

أما إذا أحسَّ بأن أحد الحاضرين يوشـك أن يفارق مجلسـه وهو نـاقص توبة أو ناقص إيمان، فإنه يبتدره قائلاً:

«يَـا هَذَا، كَمْ نَـادَيْنَاكَ وَمَـا أَجَبْتَ، وَكَم اسْتَعْجَلْنَاكَ وَمَـا عَجَّلْتَ، وَكَمْ وَبَّخْنَـاكَ وَمَا خَجِلْتَ، وَكَمْ كَـاشَفْنَـاكَ وَأَنْتَ تَعْلَمَ إِنَّا نَرَاكَ.. فَكَيْفَ بِكَ إِنْ رَدَدْنَاكَ وَمَـا أَرَدْنَاكَ؛ عَجَبـاً لِمَنْ يَدَّعِي حُبَّنَا، كَيْفَ لَا يَسْمَـحُ بِكُلِّهِ. يَـا هَذَا، لَيْتَـكَ لَمْ تُخْلَقْ، وَإِذَا خُلِقْتَ عَلِمْتَ لِمَاذَا خُلِقْتَ. يَا نَائِماً، انْتَبِهْ. يَا زَائِلُ، يَا رَاحِلُ، يَا مُنْتَقِلُ؛ تَزَوَّدْ وَهَيِّـىءْ سَفْـرَتَكَ.. سَـافِرْ أَلْفَ عَامٍ، لِتَسْمَعْ مِنِّي كَلِمَةً وَاحِدَةً»[2].

ونظر الإمام إلى (التوبة) على أنها: فرض عينٍ في حق كل إنسان، فلا يوجد أحـدٌ إلا وهو مفتقـرٌ إلى التوبـة، مهما كـان حالـه أو مقامـه عاليـاً[3]. . ولذا؛ فمن عجائب ما يُروى من كرامات الإمـام، أن الشيخ صـدقة البغـدادي

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٩١.

(٢) بهجة الأسرار ص ٩٢ ـ قلائد الجواهر ص ٧٥.

(٣) راجع الفصل الخاص بالتوبة في بحثنا: الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر.

سمعه يقول: جاء لي مُريد من بيت المقدس إلى هنا في خطوة، وتاب على يدي! فقال الشيخ صدقة في نفسه: مَنْ تكون خطوته من بيت المقدس إلى بغداد، فممَّ يتوب، وما احتياجه إلى الشيخ؟ فالتفت الجيلاني إلى جهته وقال: «يا هذا، يتوبُ من الخطو في الهواء فلا يرجع إليه، ويحتاج أن أعلِّمه الطريق إلى محبة الله عزَّ وجلَّ». . ثم انطلق الإمام قائلاً بلسان القطبية:

أَنَا سَيْفِيَ مَشْهُورٌ، وَقَوْسِيَ مَوْتُورٌ، وَنِبَالِي مُفَوَّقَةٌ، وَسِهَامِي صَائِبَةٌ، وَرُمْحِي مُصَوَّبٌ، وَفَرَسِي مُسَرَّجٌ. أَنَا نَارُ ٱللَّهِ ٱلمُوقَدَةُ، أَنَا سَلَّابُ ٱلأَحْوَالِ، أَنَا بَحْرٌ بِلَا سَاحِلٍ، أَنَا دَلِيلُ ٱلوَقْتِ، أَنَا ٱلمُتَكَلِّمُ فِي غَيْرِي، أَنَا ٱلمَحْفُوظُ، أَنَا ٱلمَلْحُوظُ، أَنَا ٱلمَحْظُوظُ؛ يَا صُوَّامُ، يَا قُوَّامُ.. أَقْبِلُوا إِلَى أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ، أَنَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ. يَا بُنَيَّاتِ ٱلطَّرِيقِ، يَا رِجَالُ، يَا أَبْطَالُ، يَا أَطْفَالُ: هَلُمُّوا وَخُذُوا عَنِ ٱلبَحْرِ ٱلَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ[1].

وقد اغترف معاصرو الإمام من بحر علمه اللدني الذي لا ساحل له، وأثمر ذلك رجوعاً إلى حظيرة الإسلام، ودخولاً في دين التوحيد. فلقد تمخضت حركة الإحياء التي قام بها الإمام عن توبة المسلمين، وعن إيمان غير المسلمين بالإسلام، كما ذكر المستشرق براون في مقالته عن عبد القادر الجيلاني[2]. وقد تفاوتت تقديرات المؤرخين المسلمين، فرُوِيَ في (الفتح) أن خمسمائة نفسٍ أسلموا على يديه، وتاب أكثر من عشرين ألفاً[3].. وزاد ابن العماد فقال: تاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم معظم اليهود والنصارى[4]. . وأكثر التقديرات تواضعاً، هو ما ورد في (البهجة) بإسنادٍ

---

(١) بهجة الأسرار ص ٢١.

(٢) Brawen: Art (Djilani) in; The Encyclopedia of Islam I, 170.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني ص ١١٥.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ٤/١٩٩.

متصــل ٍ، عن الإمام، أنـه قال:

أَرَادَ ٱللَّــهُ عَزَّ وَجَـلَّ مِنِّي مَنْفَعَةَ ٱلخَلْقِ، فَـإِنَّهُ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسُمـائَةٍ مِنَ ٱليَهُـودِ وَٱلنَّصَارَى، وَتَـابَ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ.. وَهَذَا خَيْرٌ كِثِيرٌ[1].

ومن هنـا نفهم تلك الإشارة الإلّهيـة للإمـام، التي دعته لـدخول بغـداد والخروج من الجذبة الروحية التي عاينها، كي يجذب الخلق إلى الخالق.

وإذا كانت حركة إحياء الدين قد تضمنت بعث الإمام للفقه الحنبلي في ثوبٍ ذوقيٍّ يمتزج بروح التصوف، على نحو ما نجده في كتابه (الغُنية لـطالبي طريق الحق) إلا أنني أعتقد أن المظهر الأتم لإحيـاء الدين، كـان خلال تلك المجالس التي داوم عليها الإمام أربعين سنة بـلا انقطاع ـ اللهم إلا في المـرة التي ذهب فيها للحجِّ ـ ولم يشغله شيءٌ عن مجلسه الداعي إلى الله. ويُروى أنه كان يلقي درسـه ذات مرة في الهـواء الطلق، فـأمطرت السمـاء. وتشاغـل الناس بالمطر؛ فرفع الإمام رأسه للسماء وقال:

«**أَنَا أَجْمَعُ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ تُفَرِّقُ عَلَيَّ**».

فسكن المطر[2].

الكـرامــات:

يعدُّ موضوع الكرامات من أكثر موضوعـات التصوف تشـويقاً، وأشـدها إثارةً للفتنة والجـدل بين المؤيدين لهـا والمعارضين. وبعض أهـل العلم ينكر الكرامات أصلاً، وينظر إليها كأنها حديث خرافة، وهذا الفريق يضم المعتـزلة وبعض الفقهاء ومعظم الدارسين المحدثين، ويضم أيضاً (الخوانساري) الذي تعرَّض لهذا الموضوع عند ترجمته للجيلاني في (روضات الجنات) فقال: إن

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥.

العامة فتحوا له في سوق التصنُّع والمخادعة دكاناً فوق كل دكان، ونسبوا إليه خوارق عادات عجيبات. . لا يصدِّقها إلا مَنْ كان من جُملة البُلداء، ولا يخفى على المسلم العاقل أن مقولة الكرامات، إما حماقةٌ أو جنون[1].

أما مؤيدو الكرامات، فلا يقع عددهم تحت حصرٍ. . وقد اهتم بعض أولئك المؤيدين بوضع مؤلفات مستقلة في إثبات الكرامة للأولياء، واستند إثباتهم إلى دلائل نقلية وعقلية. فمن النقل، ما ورد في الآيات القرآنية من خوارق عادات أهل الله ـ ممَنْ لم تُعرف نبوتهم ـ كمريم التي تساقط عليها الرطب في غير أوانه، ووزير سليمان (آصف بن برخيا) الذي أتى بعرش بِلْقيس في طرفة عينٍ، والخِضْر الذي راح يتصرَّف في الوجود بأمر الله. ووردت كذلك أحاديثُ نبويةٌ كثيرة في هذا الباب، منها ذلك الحديث الذي يُنهي به (اليافعي) كلامه في إثبات الكرامات قائلاً: ولو لم يكن إلا حديث «رُبَّ أشعثَ أغبرٍ، لو أقسم على الله لأبرَّه» لكفى ذلك دليلاً على جواز الكرامة[2].

ومن أدلة العقل على جواز الكرامة، كونها ليست بمستحيلة الوقوع مع قدرة الله، وكونها من جنس معجزات الأنبياء التي يقبلها منكرو الكرامات. وقد قام (النبهاني) بجمع الشبهات العقلية في رفض الكرامات، وتعقَّبها واحدةً تلو الأخرى بحُجج مطولة يلزم عنها ـ عقلاً ـ القول بإثبات الكرامة للأولياء، وبأن كل ما كان معجزةً لنبيٍّ يجوز أن يكون كرامةً لوليٍّ. . إذ الفرق في الدرجة وليس النوع.

ويأتي شيخ الإسلام، تقيّ الدين بن تَيْمية، ليفصل القول الشرعي في هذه القضية، جامعاً بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء في أمرٍ واحدٍ هو (خَرْق العادة) الذي يقع في باب العلم أو باب القدرة، وكلا البابين ثابتٌ

---

(١) الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات (طهران) ٥/٨٥.

(٢) النبهاني: جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية، ١٣٢٩ هـ) ١/٧ وما بعدها.

وجائزٌ عند هذا الشيخ السلفيّ العظيم الذي لم يفته أن يستشهد في رسالته بعبارة (الجوزجاني) الصوفية الشهيرة: كُن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك مُنْجبلةٌ على طلب الاستقامة وربُّك يطلب منك الاستقامة[1]. . وهكذا بدا ابن تيمية من المؤكدين جواز وقوع الكرامات، حتى أن ناشر رسالته انزعج كثيراً[2].

أما عن كرامات الإمام الجيلاني، فقد تكاثرت وانتقلت روايتها بعدة طرق ـ منها الإسناد المُعَنْعَنُ المتصل ـ وتواترت حتى قيل (ما نُقلت الكرامات عن أحدٍ بالتواتر، إلا عن الشيخ عبد القادر. .) وهي عبارةٌ شهيرةٌ تُنسب أحياناً لليَوْنيني وأحياناً للعز بن عبد السلام، وأحياناً لغيرهما[3].

وقد امتلأت كتب التراجم بأخبار كرامات الجيلاني، ووُضعت في ذلك عدة مؤلفات مستقلة، ابتدأت كراماته ـ كما مرَّ علينا ـ منذ يوم مولده، حين كان يرضع في نهار رمضان[4]. ولم يقتصر ذكر كرامات الإمام على الصوفية وحدهم، أو على مؤلفي ترجماته فحسب؛ بل نجد ذلك أيضاً في مؤلفات أعلام الإسلام، ممَنْ ليس لهم اهتمامٌ بتوطئة مذهب الصوفية، كالدُّميري في حياة الحيوان[5]، والذَّهبي في العِبر وسيَر أعلام النبلاء[6].

---

(١) ابن تيمية: رسالة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات (مكتبة الصحابة) ص ١٧.

(٢) انظر التعليقات السخيفة التي ذيّل بها ناشر الرسالة السابقة هوامش الصفحات، منتقداً ابن تيمية: صفحات ١١، ١٨، ٣٧، ٣٨.

(٣) راجع في ذلك: فوات الوفيات ٢/٥ ـ شذرات الذهب ٤/١٩٩ ـ ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأولاده (مخطوط دار الكتب المصرية) ورقة ٣ ب.
ويعقّب النبهاني على ما أورده من كرامات الجيلاني بقوله: وكراماته رضي الله عنه كثيرةٌ جداً، قد ثبتت بالتواتر، وتناقلتها الأمة عن الأئمة، وأُلِّفت فيها الكتب الكبيرة الكثيرة. . (جامع كرامات الأولياء ٢/٩١).

(٤) راجع هذه الحكاية فيما سبق، وانظر أيضاً: بهجة الأسرار ص ٣٥ ـ قلائد الجواهر ص ٣ ـ خلاصة المفاخر ورقة ٨٠ ب.

(٥) الدميري: حياة الحيوان ص ٣٠٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٤٨.

ولن نزيد هنا من سرد كـرامات الجيـلاني، فيكفينا مـا ذكرنـاه في ثنايـا الكتاب، مع الإشارة إلى (مئات) الكرامات التي تـوجد ـ لمن أراد مـطالعتها ـ بالبهجة والقلائد والمفاخر.. وغير ذلك من ترجمات الإمام.

وكـان الجيلاني يـرى أن:

«كَـرَامَةُ ٱلـوَلِيِّ ٱسْتِقَامَـةُ فِعْـلٍ عَلَى قَـانُـونِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَٱلتَّحَدُّثُ بِسِرِّ ٱلوِلاَيَةِ نَقْصٌ، وٱلتَّرَصُّـدُ لِنَسِيمِهَا كَـرَامَةٌ. وٱلكَـرَامَةُ أَثَـرُ ٱنْعِكَاسِ نُـورِ ٱلحَقِّ عَلَى قَلْبِ ٱلوَلِيِّ مِنْ مَنْبَـعِ ضَوْءِ ٱلنُّـورِ ٱلكُلِّي بِوَاسِطَـةِ ٱلفَيْضِ ٱلإِلَٰهِيِّ، وَلَا يَظْهَرُ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلوَلِيِّ إِلَّا مَعَ عَدَمِ ٱخْتِيَارِهِ»[1].

ثم يؤكد الإمام ضرورة صرف النظر عن مسألة الكرامة بقوله:

«لَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ ٱلصَّادِقِ أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْ قَصْدِهِ بِوُجُودِ كَرَامَةٍ، فَلَا يَقِفُ مَعَهَا وَيَرْضَى بِهَا عَنِ ٱللَّهِ عَوَضاً، إِذْ هِيَ حِجَابُهُ عَنْ رَبِّـهِ مَا لَمْ يَصِـلْ إِلَيْهِ عَـزَّ وَجَلَّ، فَـإِذَا حَصَلَ ٱلوُصُولُ لَا تَضُرُّهُ ٱلكَرَامَاتُ.. وَتَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَلَا يُظْهِرُهَا لِأَحَـدٍ مِنَ ٱلعَوَامِ، إِلَّا أَنْ يَغْلُبَ عَلَيْـهِ ظُهُورُهَـا؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلوِلَايَةِ كِتْمَانَ ٱلكَرَامَاتِ، وَمِنْ شَـرْطِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلرِّسَالَةِ إِظْهَارَ ٱلمُعْجِزَاتِ، لِيَقَعَ بِذَٰلِكَ ٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلوِلَايَةِ»[2].

وقد نقلنا هذين النصين بتمامهمـا، لما يوضّحانه من مُجمـل رأي الإمام في مسألة الكرامة وخرق العادة، وهو الرأي الذي يطابق ـ تقريباً ـ ما قرّره كبار

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٣٩.
(٢) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ص ١٢٧٨.

الصوفية، أمثال: الغزالي[1] وابن عربي[2] وابن عطاء الله[3] والبريفكاني[4] واليافعي[5] والنبهاني[6].. وغيرهم.

وبحسب الرأي العام السابق؛ فإن الكرامات المنسوبة للإمام لم تكن بسعيه إليها، وإنما هي محض إظهارٍ لتأييد الله له بالولاية.. ولقد أظهر الله ولاية الإمام أيضاً، فيما وفقه تعالى إليه من فتاوى، تشهد كلها بغزارة علمه اللدني.

الفتاوى:

كما تصدَّر الإمام الجيلاني - إبان ولايته - للدعوة لدين الله وتربية المريدين وإصلاح حال أهل الزمان، تصدَّر أيضاً للإفتاء[7]، فكان يُفتي على المذهبين الحنبليّ والشافعيّ، وكانت فتاويه مزجاً بين علم الظاهر وبين فقه القلوب؛ ولطالما حُملت فتاوى الإمام إلى الفقهاء، فأعجبوا بها أشد الإعجاب.. ولنا هنا وقفةٌ مع ثلاثٍ من الفتاوى الجيلانية التي انطلقت من مكمن دقيق العلم ورقيق الذوق:

أولاً: حُملت إلى الإمام الجيلاني فتوى عن رجلٍ حلف بالطلاق ثلاثاً أن يعبد الله عبادةً لم يسبقه أحدٌ إليها.. فأفتى بأن يذهب الرجل إلى مكة،

---

(١) إحياء علوم الدين، المجلد الرابع، ص ٤٣٦.
(٢) الفتوحات المكية، السفر الثالث، ص ٤٢٠.
(٣) الحكم العطائية ص ١٧٩.
(٤) تلخيص الحكم ص ٣٠١.
(٥) نشر المحاسن الغالية ص ٤٤.
(٦) جامع كرامات الأولياء، الجزء الأول ص ٢١.
(٧) يقول الشيخ عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني، إن والده تصدَّر للكلام على الناس مُدَّة أربعين سنة، من ٥٢١ حتى وفاته ٥٦١، أما التدريس والإفتاء فقد تصدَّر له من سنة ٥٢٨، فكانت مُدَّته ثلاثاً وثلاثين سنة.

ويُخلى له حول الكعبة فيطوف وحده! فكان الأمر كما أفتى الإمام، ولم يقع طلاق الرجل[1].

ثانياً: جاء إليه رجلٌ ثريٌ من التجار ومعه قدرٌ من المال، وسأله عمَّنْ يجب أن يُعطى له هذا المال، إذ أن الرجل لا يرى مستحقاً له.. فقال الإمام للرجل: أعطه لمَنْ يستحقُّ ومَنْ لا يستحقُّ، يُعطك الله ما تستحقُّ وما لا تستحقُّ[2].

ثالثاً: قيل للإمام إن أحد المريدين يدَّعي أنه يرى الله عز وجل، فأرسل إليه وعنَّفه ونهاه عن ذلك القول.. ولما سُئل عن حقيقة قول هذا المريد، وهل هو محقٌ أم مبطلٌ؟ قال:

> **هُوَ مُحِقٌّ مُلْبَسٌ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ شَهِدَ بِبَصِيرَتِهِ نُورَ الْجَمَالِ، ثُمَّ خُرِقَ مِنْ بَصِيرَتِهِ إِلَى بَصَرِهِ مَنْفَذٌ، فَرَأَى بَصَرُهُ بِبَصِيرَتِهِ مُتَّصِلَ شُعَاعِهَا بِنُورِ شُهُودِهِ، فَظَنَّ أَنَّ بَصَرَهُ رَأَى مَا شَاهَدَتْهُ بَصِيرَتُهُ. وَإِنَّمَا رَأَى بَصَرُهُ بَصِيرَتَهُ فَحَسْبُ، وَهُوَ لَا يَدْرِي[3].**

وخلال هذه الفتاوى الثلاث المختارة من جملة ما أفتى به الإمام، تظهر حقائق معارفه التي جمعت بين وعي العقل وهدي القلب.. فالفتوى الأولى هي محض إفتاءٍ فقهيٍّ يستند إلى حكم الشرع الظاهر، مع التبصُّر بنور الفهم الرباني. فقد حيَّرت هذه المسألة الفقهاء آنذاك، وما دروا كيف يمكن لمسلمٍ أن يعبد ربَّه عبادةً لم يسبقه إليها الأوائل مع فضلهم وكثرة تعبُّدهم؟ وهنا أفتى الإمام بما أفتى به، مُسترشداً بنور الفهم الذي ورد في قوله تعالى:

---

(١) بهجة الأسرار ص ١١٨ ـ قلائد الجواهر ص ٤٩.
(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٤.
(٣) المرجع السابق ص ١١٩.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾[1].

أما الفتوى الثانية، فيظهر فيها الإمام الجيلاني العالم بالنفس العارف بالله. فهو لم يرد لهذا المتصدِّق أن تتولى نفسه تفقُّد أحوال الخلق، وتنصيب ذاته حَكَماً فيهم (مَنْ يستحقُّ ومن لا يستحقُّ) فهنا تشعر النفسُ الإنسانية بغلبة سلطانها، فتنسى المراد من الصدقة.. فأراد الإمام أن يكفَّ الرجل عن تحكيم نفسه في الناس، فالناس فيهم مَنْ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[2]. وأراد في الوقت ذاته أن يعرِّف الرجل بأن الله لا يُعطي بقدر استحقاق الإنسان؛ فهو سبحانه يُربي الصدقات ويُعطي ﴿ٱلحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3].

والفتوى الثالثة الأخيرة، إعلامٌ بتدقيق الإمام وإبحاره في فيوضات المعرفة الربانية متحقِّقاً برقيق المشاهدات. فهو لم يفزع ويُزبد ويحوقل كواحدٍ من فقهاء القشور، وإنما أدرك هذا المريد الذي عثر في طريقه، وأخذ بيده شارحاً حقيقة حاله، لأن الإمام عاين من مقام التمكين، ما عاينه هذا المريد وهو في التلوين.. وهذا هو نفس الموقف الذي اتخذه الإمام من قضية الحلّاج، تلك القضية التي قال الإمام بصددها: عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده[4].

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٧٩.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٣.

(٣) سورة يونس، آية ٢٦.

(٤) انظر مقالة الإمام في (الحلاج) بديوان عبد القادر الجيلاني.

أسلوب الجيلاني ومؤلفاته وترجماته

إذا كانت اللغة ـ كما يقول ابن جِنِّي ـ هي أصواتٌ يعبر بها كُلُّ قومٍ عن أغراضهم[1]. . فإن للصوفية لغتهم الخاصة التي حاولوا بها التعبير عن الأغراض والمرامي الذوقية التي اختصوا بها، وتعارفوا فيما بينهم على الدلالات الرحيبة للفظ الواحد. هذا اللفظ الذي يكتسي عند دخوله كتابات القوم، بمفهوم مغاير لما درج الناس عليه، أعني: مفهوم اصطلاحي. وتشكل هذه الاصطلاحات الصوفية، الأبجدية العامة في لغة أهل الطريق، فهي أبجدية الإشارات والتلويحات المحتشدة في العبارات التي تكلموا بها، وفي الآثار المكتوبة التي بقيت بعدهم. ومن هنا كان اهتمام رجال التصوف ودارسيه بوضع المؤلفات المستقلة في معاني تلك المصطلحات، مما خلف في النهاية قدراً من هذه المؤلفات، أشهرها: اصطلاحات الصوفية لابن عربي، اصطلاحات الصوفية للقاشاني، معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن الشرقاوي، المعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم.

وقراءة التصوف لا تقتضي تعلم هذه الأبجدية فحسب، بل تقتضي

(١) ابن جني: الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٦)، الجزء الأول، ص ٣٤.

أيضاً تذوُّقاً قلبياً لحقائق الطريق ودقائق الولايـة، وتعرُّفـاً على موضـع إشارات اللفظ ودلالاته، وتجربةً فرديةً لمعاينـة بعض لمحات الأنـوار. . وإلَّا، فالمـاء المالح والماء العذب ـ كما يقول الـرُّومي ـ شبيهان في الصفـاء؛ فليس يدري الفرق بينهما سوى صاحب ذوق[1].

وهناك بعض السمات المميزة في كتابات كل واحـدٍ من أقطاب الـطريق الصوفي، ومن هذه السمـات يتحدَّد الأسلوب الخـاص الذي يميِّـز كتابـاته. . وحول تلك السمات والخصائص في مؤلفات الإمام الجيلاني، تـدور السطور التالية.

أُسلوب الإمام:

أول مـا يستلفت النظر في مؤلفـات الإمام الجيـلاني، هـو هـذا التنـوع والتبـاين في أُسلوب الكتابـة والتأليـف، فهـو إذا تعرض لبيـان أقسام الشـريعـة وأركانها ـ كما فعل في الغُنية ـ نراه يبسِّط القول ويتخيَّر من الألفـاظ أيسرهـا، متدرِّجاً بذلك من الكلام عن العقائد إلى الكلام في العبادات والآداب ونوافل الأعمـال، دون توغُّـلٍ في المسائـل الفقهية الخـلافيـة. وهـو يكثـر في هـذه الموضوعـات من التضمين، فنجد الآيـات القرآنيـة والآثار مبثـوثة بين طَيَّـات العبارات، لتنتظم جميعاً في أسلوبٍ واضحٍ مباشر.

أمـا الكتابـات الصوفيـة للإمـام، فهي على ضـربين. . الأول: مجالس وعظه وكلامه للمريدين. والآخر: أشعـاره ومقالاتـه الرمـزية. وفي المجـالس تبدو عدة خصائص أسلوبية، أهمها الاعتماد على اللفظ القـويِّ المؤثر الـذي لا يخلو من الإشارة والتلويح والتورية، وقد بدت هذه الخاصيـة في أول كلام للإمام، حين صعد للمرة الأولى على المنبر. . فارتـج عليه في البـداية ـ وهـو

---

(١) جـلال الدين الـرومي: المثنوي، تـرجمة الـدكتور عبـد السلام كفـافي (المكتبـة العصـريـة ـ بيروت)، المجلد الأول، ص ٢٧٦.

الرجل الأعجمي الذي جاء يتحدث إلى فصحاء بغداد ـ لكنه ما لبث أن انطلق بالفتح قائلاً:

غَوَّاصُ ٱلْفِكْرِ يَغُوصُ فِي بَحْرِ ٱلْقَلْبِ... الخ[1]

ومن السمات المميزة لأسلوب الإمام في هذه المجالس، توقفه في أحيان كثيرة أمام بعض آيات القرآن وألفاظ الحديث الشريف، متأولاً لمعانيها، حاملاً مرادها إلى أبعد المفاهيم. فمن ذلك ما نجده حين يتعرض لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ..﴾[2] فيقول متأولاً ذلك على العارف الرباني:

ٱلْخَلْقُ ٱلأَوّل مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ ٱلنَّاسِ، وَهَذَا ٱلْخَلْقُ مُفْرَدٌ.. يُفْرِدُهُ عَنْ إِخْوَانِهِ وَأَبْنَاءِ جِنْسِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ ٱلأَوّلَ وَيُبَدِّلُهُ، يُصَيِّرُ سَافِلَهُ عَالِيَه.. فَيَصِيرُ رَبَّانِيًّا رُوحَانِيًّا، يَضِيقُ قَلْبُهُ عَنْ رُؤْيَةِ ٱلْخَلْقِ[3].

ولا تخلو مجالس الإمام من القصص الموحي وضرب الأمثال، لتقريب المعنى المراد للأذهان. كما كان كثير الإشارة إلى أقوال الصوفية السابقين عليه ـ خاصةً رجال الطبقة الأولى ـ مستدلاً بهذه الأقوال على أحوال المتقين وسيرة المتقدمين من الزهاد.

وكان الإمام يكثر من إنشاد أبيات الشعر في كلامه، ليفصِّل قولاً أو يوضِّح دقة معنى. ويروى عن أحد معاصريه، أنه أراد يوماً أن يحصي المرات التي ينشد فيها الإمام شعراً وهو على المنبر، فحضر المجلس ومعه خيط تحت ثيابه، فكان كلما استشهد الإمام أو أنشد أبياتاً، يعقد في الخيط عقدةً

(١) بهجة الأسرار ص ٢٦ ـ خلاصة المفاخر، ورقة ٩٦ أ.. وانظر نص العبارة فيما سبق.
(٢) سورة المؤمنون، آية ١٤.
(٣) الفتح الرباني، ص ٣٨.

ـ وهو في آخر الناس ـ حتى انشغل بذلك. . فإذا بالإمام يلتفت إليه قائلاً:

أَنَا أَحِلُّ وَأَنْتَ تُعَقِّدُ[1].

وهناك بعض التعبيرات التي تتكرر كثيراً في النصوص الباقية من مجالس الإمام الجيلاني، فمن ذلك قوله: يا غلام[2]. . ويحك. . يا قوم. . الشجاعة صبر ساعة!

والمتأمل في عبارات الإمام، يدرك أنه كان يُحجم عن الدخول في دقائق المعرفة ورقائق الولاية، ما دام كلامه للمريدين وأهل الابتداء. حتى أنه في بعض الأحيان التي تفيض عنه بعض هذه الأنوار، لا يلبث أن يستدرك على نفسه، فيقول:

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي هَذِهِ ٱلْأَسْرَارِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي مَغْلُوبٌ[3]..

ولا شك في أن إحجام الإمام عن الكلام في تلك الأمور، كان لخشيته من افتتان العامة والمبتدئين، وعملاً بالمبدأ الصوفي الذي ذكره أبو عمرو الدمشقي (المتوفى سنة ٣٢٠ هجرية) حين قال: كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات، فرض على الأولياء كتمان الأسرار[4].

وأخيراً، فقد كان كلام الإمام في هذه المجالس بغير ترتيبٍ مسبقٍ، وبغير إعادةٍ لموضوعٍ، وهذا ما يقرره الإمام في قوله: ما ثنّيتُ في كلامي قط. . وما تكلمتُ إلاَّ بالفتح[5].. لكنه كان دوماً ما يبدأ المجلس بقوله

---

(١) بهجة الأسرار، ص ٩٤ ـ قلائد الجواهر ص ٨٣٩

(٢) كان الإمام الجيلاني يكرر هذه الكلمة في بداية كل فقرة من كلامه لمريديه، كما كان معاصره الشيخ أحمد الرفاعي يبدأ فقرات كلامه لأهل مجلسه بقوله: أي سادة. . (انظر: البرهان المؤيد من كلام الشيخ الرفاعي) وكان الشيخ عبد السلام الأسمر يبدأ مواعظه بقوله: يا إخواني. . (انظر: الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر).

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص ٢٣١.

(٤) السلمي: طبقات الصوفية ص ٦٥.

(٥) بهجة الأسرار ص ٩٢.

(الحمد لله رب العالمين) فيكررها ثلاث مرات، ويسكت عقب كل مرة لحظة. ثم يقول (عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته..) ويُنهي كل مجلس بالآية الشريفة: ﴿رَبَّنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١).. وهي الآية التي كان النبي ﷺ ينهي بها مجلسه.

أما الشكل الآخر من التعبير الصوفي، أعني: الأشعار والمقالات الرمزية. فقد بلغ فيهما الإمام غاية التمكين في توجيه المصطلح الصوفي وإرساله إلى أبعد الدلالات، بل إنه كثيراً ما هجر المصطلح السابق عليه، وراح يرسم بالكلمات اصطلاحات جديدة لا نكاد نجدها عند غيره من أهل الطريق.. وهذا ما نجده في (ديوان الجيلاني).

* * *

وفيما يخص مؤلفات الإمام الجيلاني، وما نسب إليه من آثار بعضها صحيح ومعظمها منحول، نقدم هذه القائمة التي استفدناها خلال سنوات بحثنا في تراث الإمام الجيلاني، والتي تعرَّفنا على بعضها مما ذكرته كتب المترجمين والمفهرسين..

الغُنية:

يعدُّ كتاب (الغُنْية لطالبي طريق الحق) أشهر آثار الإمام الجيلاني على الإطلاق، وهو واحد من المؤلفات التي توضع في مرتبةٍ واحدةٍ مع قوت القلوب للمكي وإحياء علوم الدين للغزالي؛ بعدِّها من الكتابات التي عني فيها الأئمة بجمع المعارف الدينية في قالب موسوعي يغني عن الرجوع إلى الأسفار المطولة. يقول الإمام في سبب تأليف الكتاب إنه وضعه: إجابةً

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس أن أكثر دعاء النبي ﷺ كان: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، (انظر تخريج الحديث وفضل هذا الدعاء في: اللؤلؤ والمرجان ٣/٢٢٥) وهي الآية ٢٠١ من سورة البقرة.

لبعض الأصحاب الراغبين في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات، ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية. . ومعرفة أخلاق الصالحين[1].

وقد حظيت (الغُنْية) بالاهتمام على مدى القرون الممتدة من وفاة مؤلفها حتى اليوم، وتوافرت نسخها الخطية وطبعاتها في كافة البلدان[2]، وتناولها المسلمون بأيدي العناية والنسخ والمطالعة. وقامت حولها بعض الأعمال، منها كتاب (نظم الغنية) للشيخ نور الدين البريفكاني الذي وضع عبارات الغنية في أبيات شعرية ليسهل حفظها[3]، ومنها ترجمة إلى التركية قام بها سليمان جلبي المعروف بكتابي، بعنوان (عمدة الصالحين في ترجمة غنية الطالبين للكيلاني الشهير بغوث الأعظم والمتخلِّص بمحيي الدين) وقد أصدرتها في جزئين سنة ١٣٠٤ هجرية، المطبعة العثمانية بإسطمبول[4].

وقد ظهرت مؤخراً طبعة محقَّقة من الغنية ـ في ثلاثة مجلدات ـ قام بها فرج توفيق الوليد (الأستاذ المساعد بكلية الشريعة، جامعة بغداد) بعد مقابلة النص على سبعة أصول مخطوطة ومطبوعة، مع التعليق والتقديم والفهارس.

المجالس:

كان مجلس الإمام ينعقد ثلاث مرات في الأسبوع (في المدرسة بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد) وكان خَلْقٌ كثيرٌ يحضرون هذه المجالس، وكان منهم مَنْ يكتب ما يقوله. . ويبدو أن الشطنوفي والتادفي قد

---

(١) الجيلاني: الغنية (مقدمة الكتاب) ص ٤٨.

(٢) طبعت الغنية عدة مرات بمصر منذ سنة ١٢٨٨ هجرية، وطبعت أيضاً بالهند والعراق والسعودية.

(٣) البريفكاني: تلخيص الحكم (مقدمة التحقيق) ص ٦٥.

(٤) توجد منها نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٤٠، ١٩٢ تصوف تركي، طلعت.

بالغا حين ذكرا أن «أربعمائة عالم كانوا يكتبون ما يقـول في مجلسه»[1] أو أن ثمة تصحيفاً وقع في الخبر الذي نقلا عنه.

عموماً، فقـد جُمعت أقوال الإمـام في مجالسـه، ورتَّبها بعض تـلاميذه ووضعوا لها العناوين المناسبة.. وهذه المجاميع هي:

١ ـ فتوح الغيب:

تشير الدلائل إلى أن هذا الكتاب ـ الذي يضـم ٧٨ مقـالة غيـر مؤرخة ـ هو أقدم مجموعة من مجالس الإمام، فقد وضع عليه ابن تيمية (المتـوفى سنة ٧٢٨ هجـرية) شـرحاً تحتفظ المكتبـة الظاهـريـة بنسخـة خـطيـة منـه ـ بخط المؤلف ـ وهي إحدى النسخ التي اعتمد عليها الدكتور محمد رشاد سـالم في إخـراجه النص المحقق لهـذا الشرح اللطيف الـذي اقترب فيـه ابن تيميـة من مشارب أهل الذوق[2].

وهناك العديد من النسخ الخطية من فتوح الغيب، ذكر بـروكلمان أرقـام بعضها في مكتبات ليبزج وباريس وإسطمبول والقاهرة[3]، وأشـارت المراجـع الأخرى إلى نسخٍ لها بمكتبة الأوقاف العامة ومكتبة الحضرة القادريـة ببغداد، وقد رأينا منه نسخة بعنوان (كتاب الجيلاني) محفوظة بالأزهر[4]؛ وهو مـطبوعٌ على هامش بهجة الأسرار وقلائد الجواهـر، وله طبعـات مستقلة توالي مكتبـة الحلبي بالأزهر إخراجها كلما نفدت.. وقد قامت هذه المكتبة بـإلحاق جملة قصـائد بهـذه الطبعـات، نَسَبَتْها جميعـاً للإمـام الجيلاني، إحـداهـا (قصيـدة النادرات العينية) لعبد الكريم الجيلي (ويبدو أن القائم على طبع الكتاب كـان

---

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٩٥.
التادفي: قلائد الجواهر ص ٢٢.
(٢) ابن تيمية: شرح كلمات من فتوح الغيب (جامع الرسائل) ٢/٧١.
(٣) Brockelman: Gieschischte der Arabischen Literature II p. 778.
(٤) مخطوط مكتبة حليم بالأزهر، رقم ٩٠٢ خصوصية.

يعرف أن القصيدة ليست للإمام الجيلاني، لأنه حذف منها الأبيات التي ترجم فيها عبد الكريم الجيلي لنفسه ذاكراً تاريخ مولده، وكتب في هامش الصفحة: بياض في الأصل[1].

٢ ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني:

وهو المجموع الثاني من مجالس الإمام الجيلاني، التي بدأت يوم الأحد الثالث من شوال سنة ٥٤٥، وانتهت في أول رجب سنة ٥٤٦ هجرية. وتشير بعض المصادر إلى أن جامع هذه المجالس هو (عفيف الدين بن المبارك) أحد خلفاء الإمام الجيلاني[2]، ويبدو أن هذا المبارك هو الذي أعطى للكتاب هذا الاسم الذوقي (الفتح الرباني) الذي توجد فيه عدة مؤلفات أخرى تحمل عنوانه، منها:

- الفتح الرباني والفيض الرحماني، للنابلسي[3].
- الفتح الرباني في حل ألفاظ الزنجاني، لشمس الدين الشربيني[4].
- الفتح الرباني لما ذهل فيه الزرقاني، لمحمد بن الحسين البتاني[5].

وقد حظي (فتح) الإمام الجيلاني هذا بعناية النساخ قديماً، وباهتمام المطابع في أيامنا.. فقد ذكرت الفهارس عدة أصول خطية له في مكتبات العالم، منها نسخ بعنوان (الفتح الرباني والفيض الرحماني) وعنوان (فتوحات العارف الرباني) وعنوان (الفتح الرباني للإمام الصمداني) وعنوان (ملفوظ الشيخ الرباني) وعنوان (ملفوظ القادرية) وهذه العناوين جميعاً ذكرها بروكلمان لنسخ خطية في مكتبات داماد زادا، وسليم أغا، والآصفية،

(١) الجيلاني: فتوح الغيب (طبعة الحلبي) ص ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣.

(٢) السامرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني (مطبعة الأمة ـ بغداد) ص ١٦.

(٣) مخطوط الإسكندرية رقم ٣١٣٣ج تصوف، وقد نشرته دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق محمد عبد القادر عطا.

(٤) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٢٤١ هـ، (رصيد عام).

(٥) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٥٣٦٦ ب، (رصيد عام).

وبنكيبور[1]، كما ذكر السامرائي نسخة منه بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد[2]. وقد رأينا نسخة نفيسة من هذا الكتاب ببلدية الإسكندرية، مؤرخة بسنة ٦٤٧ هجرية[3].

أما طبعات هذا الكتاب فقد ابتدأت بها مطبعة الحلبي بمصر، ثم توالت طبعاتها بالأقطار الإسلامية. وقد اعتمدنا في هذا البحث على إحدى الطبعات غير المؤرخة التي أصدرتها مطبعة الحلبي، جاء على الورقة الأولى أنها: الطبعة الأخيرة!

٣ ـ جلاء الخاطر في الظاهر والباطن:

وهو المجموع الأخير الباقي من مجالس الإمام، يبتدئ بالمجلس المنعقد يوم الجمعة التاسع من رجب، وينتهي بمجلس يوم الرابع والعشرين من رمضان سنة ٥٤٦ هجرية[4]. فهو بذلك استكمالٌ لما ورد في الفتح الرباني، خاصةً أن الأسلوب والإطار العام واحدٌ في كليهما. ولم يُطبع هذا الكتاب رغم وفرة نسخه الخطية، فبالإضافة إلى النسخ التي ذكرها بروكلمان[5]، توجد له نسخة جيدة بمكتبة السليمانية بإسطمبول، وأخرى بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد.. كما توجد نسخة منه بمكتبة جامعة القاهرة (برقم ١٥٧٤١/ تصوف) وهي نسخة ناقصة من آخرها.

الأوراد والأحزاب:

هناك العديد من المعاني اللغوية لكلمتي (ورد ـ حزب) منها المعنى الذي ذكره ابن منظور والفيروزآبادي والزبيدي، والذي يحتمل اللفظين معاً، وهو: أن يجمع العابد قدراً معلوماً من سور القرآن ـ بحيث لا يكون فيها

(١) Gieschischte der Arabischen Literature II p.778.

(٢) السامرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني ص ١٦.

(٣) مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ٢١٦٤ ج تصوف.

(٤) مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٧٤١ تصوف، الورقة الثانية ب.

(٥) Gieschischte der Arabischen Literature II p.778.

سورة منقطعة ـ ثم يلتزم بقراءتها في اليوم والليلة. . فيقال لذلك (قرأ الرجل وِرْدَهُ وَحِزْبَهُ) بمعنى واحد[1].

ويُطلق لفظا الحزب والورد أيضاً، على كل (ذكر) يُتلى بعد الحضرة في الزوايا والتكايا الصوفية، بشرط أن يكون هذا الذكر مؤلفاً من مختارات مطولة من سور القرآن. . كما يُطلق اللفظان على الأدعية التي يعدُّها أقطاب التصوف لتلاوتها ـ إما بانتظام أو كلما دعت الحاجة ـ وإن كان هذا الاستخدام الأخير لم ينتشر إلاَّ في نطاق ضيق، فهذه الأدعية لم تعرف بالأوراد والأحزاب إلاَّ في القرن السادس الهجري ـ يقول ماك دونالد: وأول حزبٍ معروفٍ هو الحزب الذي وضعه عبد القادر الجيلاني، ثم وضعت بعد ذلك أحزابٌ كثيرةٌ من تصنيف ابن عربي وأحمد البدوي والإمام النووي وغيرهم، وأشهر هذه الأحزاب جميعاً (حزب البحر) للشاذلي[2].

. . وهناك جملة أوراد وأحزاب منسوبة للإمام الجيلاني، يعتقد القادرية أنه كان يداوم على قراءتها، ومن ثمَّ فهم يقتدون به في ذلك[3]؛ وهذه المأثورات هي:

١ ـ أوراد الأيام السبعة:

وهي أوراد قصار على عدد أيام الأسبوع، تبدأ بورْدِ يوم الأحد. . وقد أشارت النسخ الخطية والمطبوعة من هذه الأوراد، إلى صحة نسبتها للإمام الجيلاني، وإلى أنها رويت برواية صحيحة الإسناد عن الشيخ الإمام مسلم الصيَّادي!

---

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الأول، ص ٦٢١، المجلد الثالث، ص ٩٠٨ ـ القاموس المحيط، المجلد الأول، ص ٥٦، ٣٥٧ ـ التكملة والذيل والصلة، الجزء الأول، ص ١٧٤ والجزء الثاني ص ٣٣٢.

(٢) ماك دونالد: مادة حزب بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد السابع ص ٣٦٩.

(٣) اهتم متأخرو الصوفية بالأوراد اهتماماً بالغاً، وجعلوا لقراءتها وقتاً لا يجب أن ينشغل فيه المريد بأمر آخر، وإلا كان مؤثراً ما سوى الله عليه. . انظر: رسالة الشيخ قريب الله فيما يتعلق بالأوراد (جامع الأوراد) ص ١٨٩ وما بعدها.

ولا يـوجد في هـذه الأوراد ما يقـطع بنسبتهـا لـلإمـام الجيـلاني، فهي محض أدعية ممزوجة بأسماء الله الحسنى في عبارة لطيفة لا تخرج عن الإطار العام لأسلوب الإمام. . هـذا وإن كان (ورد يـوم الجمعة) قـد انفرد بنـوع من الصياغة اللفظية التي يغلب عليها التكلف وهذا ما لم نره في بقية آثار الإمام. فمن ذلك:

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعَظِيمِ قَدِيمِ كَرِيمِ مَكْنُونِ مَخْزُونِ أَسْمَائِكَ.. وَبِلَوَامِعِ بَوَارِقِ صَوَاعِقِ عَجِيجِ هَجِيجِ رَهِيجِ بَهِيجِ نُورِ ذَاتِكَ، وَبِبَهْرِ قَهْرِ جَهْرِ مَيْمُونِ آرْتِبَاطِ وَحْدَانِيَّتِكَ.. صُبَّ عَلَيْنَا مِنْ أَنَابِيبِ مَيَازِيبِ ٱلتَّوْفِيقِ.. وَآغْمِسْنَا فِي حِيَاضِ سَوَاقِي مَسَاقِي بِرِّ بِرِّكَ وَرَحْمَتِكَ.. الخ.

والحقيقة فإن هذه السمة الأسلوبية بعيدةٌ تماماً عما نعرفه في كلام الإمام الجيلاني من سمات.

وهناك عدة مئات من النسخ الخطية لهـذه الأوراد، أغلبها بيـد القادريـة في الشرق والغرب أما النص الذي ذكـرناه هنـا، فهو مـأخوذٌ من أصلين لهـذه الأوراد: أحـدهـا مخـطوط بـالأزهـر[1]، والآخـر مـطبـوع ضمن الفيـوضـات الربانية[2].

٢ ـ أوراد الأوقات الخمسة:

وهي أورادٌ تُتلى بعد كل صلاة مكتوبة في كل يومٍ مرةً، ويذكر القادرية لنسبتهـا للشيخ إسنـاداً متصلاً من طـرق كثيرة. وأول هـذه الأوراد يُقـرأ عقب صلاة الصبح، ويسمى (حزب التضرع[3] والابتهـال) وهو يبـدأ بمجموعـة من

(١) مخطوط الأزهـر ضمن مجمـوعـة بعنـوان (أدل الخيـرات) بـرقم ٨٠٥ خصـوصي، ٣٤٣٠٨ عمومي، حليم ـ ورقة ٣ ب.

(٢) الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) ذكر بروكلمان (Gieschischte der Ar. II p.778) عدة نسخ من هذا الحزب بمكتبات رامبـور وآيا صوفيا، بعنوان: حزب النجاة والابتهال.

الآيات القرآنية وينتهي بأدعية وابتهالات، وتوجد بين أيدينا منه ثلاث نسخ: مخطوط الأزهر رقم ٨٠٥ خصوصية، حليم ـ مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧، تصوف ـ طبعة الفيوضات الربانية ص ٩٨ وما بعدها (ويليه بقية الأوراد الخمسة) كما توجد له نسخ عديدة أشارت إليها الفهارس.

والورد الثاني يُقرأ بعد صلاة الظهر، ويسمى (حزب السُريانية) وهو يختلف في لغته عن الورد السابق، ويتضمن ألفاظاً مثل: سهسوب ذي العزة.. كهوب كهوب الذي سخر كل شيء! وهي ألفاظ سُريانية يفترض أنها تشير لأسرارٍ خاصةٍ، مع أن الإمام لم يستخدمها في غير هذا الحزب، الذي نرجح أنه مدسوسٌ عليه.. وهناك عدة نسخ من هذا الحزب موزعة بين المكتبات، منها نسخة بمكتبة مسجد المرسي بالإسكندرية (برقم ١٠٥٦ عام) والورد الذي يقرأ بعد صلاة العصر، يعرف باسم (فتح البصائر) وهو توجهٌ ذوقيٌّ لمعاني الفاتحة يبدأ بقوله: الحمد لله رب العالمين حمداً يفوق ويفضل حمد الحامدين.. الرحمن الرحيم الذي دحى الأقاليم واختص موسى الكليم وأحيى العظام وهي رميم.

أما الورد الذي يقرأ بعد صلاة المغرب، فيسمى (حزب الفتحية) وأوله: يا مولاي يا قادر يا مولاي يا غافر يا لطيف يا خبير، سبحان الله، تعظيماً لأسمائه عدد المعلومات، والحمد لله، الكبير المتعال.. ولا إلّه إلّا الله عدد المخلصين.. والله أكبر تكبيراً لجلالك، الخ.

وأخيراً يأتي (حزب التمجيد) الذي يقرأ بعد صلاة العشاء، وهو لا يختلف في لغته واستهلاله كثيراً عن ورد صلاة المغرب.. وينتهي هذا الحزب بجملة أدعية وتوسلات.

٣ ـ ورد الصلاة الكبرى:

وهو واحدٌ من أطول الأوراد التي ضمتها (الفيوضات الربانية) يبتدئ

بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]. . وقد وردت قطعٌ من هذا الورد بمخطوطة جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧، تصوف، جاء فيها (اللهم اجعل أفضل صلواتك. . على سرك الأعظم وفيلسوف الملة الإسلامية. . محمد) ولا شك في أن هذه العبارة مدسوسةٌ على الإمام الجيلاني، فقد عُرف عنه كراهيته للفلسفة في مواقف كثيرةٍ، منها أن رجلاً دخل عليه ومعه كتاب يشتمل على شيء من الفلسفة وعلوم الروحانيات، فنهره الإمام الجيلاني قائلاً:

بِئْسَ ٱلرَّفِيقِ كِتَابُكَ هَذَا[2].

وقد تفقدنا نص الورد الوارد في الفيوضات، فلم نجد هذه العبارة الغريبة فيه. فالراجح أن بعض النساخ أقحمها على السياق ظناً منه بأن ذلك تكريم للنبي عليه الصلاة والسلام!

٤ ـ حزب الرجاء:

وهو واحدٌ من أشهر أوراد الإمام، توزعت نسخه الخطية والمطبوعة هنا وهناك. ويتميز هذا الحزب بتفاوتٍ كبيرٍ في كلماته بين سائر النسخ، كما يتميز باضطراب عنوانه! فنجد له نسخاً بعنوان (حزب الرجاء والابتهال)[3] ويذكره بروكلمان بعنوان (حزب الرجاء والابتهاج)[4] والبغدادي بعنوان (حزب الرجاء والانتهاء)[5] والشيخ محمد المنلا بعنوان (حزب الرجاء والالتجاء)[6].

٥ ـ حزب الوسيلة:

وهو من أطول أوراد الإمام الجيلاني وأكثرها تداولاً بين القادرية، توجد

---

(١) سورة التوبة، آية ١٢٨.
(٢) بهجة الأسرار، ص ٤٨.
(٣) مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧ تصوف.
(٤) Gieschischte der Arabischen Literature II p.779.
(٥) هدية العارفين ١/٥٩٦.
(٦) سفينة القادرية ص ١٧.

له عدة ترجمات إلى التركية والفارسية بالإضافة إلى النص العربي . . وقد وضع السيد محمد الأمين الكيلاني شرحاً عليه ـ استجابة لطلب بعض الأعزاء ـ وقدَّم شرحه بكلامٍ مطولٍ حول مناقب الإمام الجيلاني ونسبه الشريف، وانتهى منه بفصل في فضل الصلاة على النبي، منتقداً ما درج عليه بعض النساخ في كتابة هذه الصلاة بقولهم (صلعم) وفي الطرة الأخيرة للشرح: نُجز في يوم السبت أول شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٧٢ من هجرته ﷺ[١].

* * *

وهناك بعض الأوراد والأحزاب المتفرقة في المخطوطات ـ وبعض المطبوعات ـ منها ما هو مُقتطعٌ من الأوراد والأحزاب السابقة، ومنها ما هو مستقل . . وكما يقول البستاني، فقد نُسبت إلى الإمام الجيلاني من الأوراد والأحزاب: ما لا يصح نسبته كله إليه[٢].

الصلوات والأدعية:

يقتصر المعنى الشائع للصلاة على كونها الركن الأساسي الذي يقوم عليه الدين، من الركوع والسجود الذي يسبقه الوضوء . . لكن لهذه اللفظة عدة معان غير ذلك، منها (التعظيم، الرحمة، الرضوان، الدعاء، الاستغفار، التسبيح) وينقل ابن منظور قول الأعرابي : الصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقات ـ الملائكة والإنس والجن ـ القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، وأما الصلاة من الطير والهوام فهي التسبيح[٣].

---

(١) سفينة القادرية ص ٩٦، ١٦١.

(٢) دائرة معارف البستاني (دار المعرفة ـ بيروت) الجزء الحادي عشر ص ٦٢١.

(٣) لسان العرب ٢/ ٤٦٩ وما بعدها.

وفيما يتعلق بمؤلفات الإمام الجيلاني، فالمراد بالصلوات هي الصيغ الشريفة التي كان يصلي بها الإمام على النبي ﷺ وهي الصيغ التي حظيت باهتمام القادرية البالغ، لِما للصلاة على النبي من فضلٍ مشهورٍ[1].

وهذه الصلوات تشتمل على أدعيةٍ مأثورةٍ كان الإمام الجيلاني يتوجه بها إلى الله. وقد كانت للإمام الجيلاني نظرته الخاصة للدعاء، فهو حين سُئل عن الدعاء قال: الدعاء على ثلاث درجاتٍ (تعريض ـ تصريح ـ إشارة) فالتصريحُ ما يلفظ به، والتعريضُ ما يكون في دعاءٍ مضمر، والإشارة ما تكون في فعلٍ مخفيٍّ.. فمن التعريض قول النبي ﷺ (لَا تَكِلْنَا إِلَى تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا) ومن الإشارة قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى) مشيراً بذلك إلى الرؤية؛ ومن التصريح قول موسى عليه السلام (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)[2].

وقد تضمنت صلوات الإمام الجيلاني على النبي هذه الدرجات الثلاث للدعاء، ففيها التعريض والتصريح والإشارة.. ولما كان القادرية يعظمون كل ما يؤثر عن الإمام الجيلاني فقد اهتموا أيضاً بأدعيته ـ خاصةً أن الدعاء مندوبٌ إليه في جملة آياتٍ وأحاديث نبويةٍ، منها قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

وبرغم أن صلوات الإمام الجيلاني وأدعيته، كانت في الغالب مقدمةً أو خاتمةً لأوراده وأحزابه إلَّا أن القادرية جمعوا هذه الصلوات والأدعية في مجاميع مستقلةٍ، ووضع بعضهم عليها شروحاً؛ ويمكن أن نشير إلى ذلك إجمالاً في مجموعتين هما:

---

(١) انظر الأخبار الواردة في فضل الصلاة على النبي في: صحيح البخاري، باب الدعوات ـ سنن أبي داود، كتاب الصلاة ـ سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ـ مسند الدارمي، كتاب الصلاة.

(٢) قلائد الجواهر ص ٥١.

(٣) سورة غافر، آية ٦٠.

١ ـ الصلاة الصغرى:

وهي الصلاة التي اختتم بها الإمام الجيلاني حزبه المعروف باسم (حزب الرجاء والالتجاء) وصيغتها كالتالي: اللهم صل على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره؛ عدد من مضى من خلقك ومن بقي، ومن سعد منهم ومن شقي، صلاة تستغرق العد وتحيط بالحد، صلاة لا غاية لها ولا منتهى.. الخ.

وقد نسب بعضهم هذه الصَلاة إلى الصوفي الشهير ابن سبعين (أبو محمد عبد الحق الأندلسي المتوفى سنة ٦٦٩ هجرية) وذلك ما يرفضه القادرية بشدة، باعتبار ابن سبعين متقدماً على الإمام الجيلاني زمناً، وأنها ثابتة من قبله في حزب الإمام[١].

٢ ـ الصلوات التسع:

وهي مجموعة صلوات وأدعية أخرى مأثورة عن الإمام الجيلاني. وهي لا تخرج عن الإطار الذي يجمعها مع الصلاة السابقة، بحيث تعرف جميعاً باسم (الصلوات العشر) المشهورة عند القادرية.. مع ملاحظة أن هناك صلاة أخرى تعرف باسم (الصلاة الكبرى) وهي التي ذكرناها ضمناً عند الكلام عن (ورد الصلاة الكبرى) في معرض حديثنا عن أوراد الإمام وأحزابه ـ وتوجد لهذه الصلاة الكبرى نسخة مخطوطة بمجاميع المدرسة العُمَرية بالظاهرية تحت رقم ٣٨٧٨ عام.

* * *

وقد وضع الصوفية المتأخرون شروحاً مطولة على هذه الصلوات القصار، أفاضوا فيها في عرض كل دقيقة ورقيقة، وفصلوا الكلام فيما أوجزه الإمام بصلواته وأدعيته.. وأشهر هذه الشروح شرحان:

---

(١) محمد المنلا: الصلات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى (سفينة القادرية) ص ١٧.

ـ شرح الشيخ عبد الغني النابلسي، بعنوان (كوكب المباني وموكب المعاني في شرح صلاة الجيلاني) وتوجد منه نسخة خطية بالأزهر (برقم ٨٧٣ خصوصية، حليم) ونسخة أخرى بالإسكندرية (برقم ٢٢٧٦ ج، فوائد وأدعية)[1].

ـ شرح الشيخ محمد بن أحمد المنلا، بعنوان (الصلات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى والذخيرة الكبرى) ويليه (شرح تسع صلوات للغوث الأعظم) وقد انتهى منهما الشارح في جمادى الأولى سنة ١٢٠٤ هجرية، وكلاهما مطبوع في سفينة القادرية.

المؤلفات المنحولة:

هناك ما لا حصر له من المؤلفات المنسوبة إلى الإمام الجيلاني، ذكرتها المصادر التي ترجمت له وأثبتتها فهارس المكتبات الخطية. وقد ثبت لدينا بنقدها أنها ليست للإمام الجيلاني.. فمن هذه المؤلفات:

أسرار الإسراء:

وهو كتاب مخطوط يقع فيما يقرب من خمسين ورقة من القطع المتوسط، توجد له نسخ عديدة منها نسخة بمكتبة الشيخ إبراهيم حلمي القادري. وقد قطعنا بعدم نسبة هذا الكتاب نظراً لاستشهاد مؤلفه بأقوال جلال الدين الرومي، الذي ولد سنة ٦٠٤ ـ وتوفي سنة ٦٧٢ ـ أي أنه ولد بعد وفاة الإمام الجيلاني بنصف قرن من الزمان.

وقد جاء في الطرة الأخيرة من المخطوط (سميتها ببيان أسرار الطالبين) وهو العنوان الذي نسبه صاحب كشف الظنون إلى: أبي المحاسن

---

(١) ذكر بروكلمان نسختين من هذا الشرح، إحداهما بمكتبة سليم أغا (برقم ٢٨٣/٤) والأخرى بالموصل (برقم ١٤٢/٣١).

يوسف بن عبد الله الكوراني العجمي؛ وهو عنوان لمخطوطة ببرلين برقم (٣٠٦ أهلوارد) منسوبة لسراج الدين الميلاني الروسني. وقد طبعت هذه المخطوطة طبعة مستقلة على الحجر سنة ١٢٧٦ هجرية بعنوان: رسالة في التصوف للشيخ البالي.

سر الأسرار:

وهو مخطوط اعتادت الفهارس أن تنسبه للإمام الجيلاني، توجد له نسخة بدار الكتب المصرية بعنوان (سر الأسرار في معرفة الجواهر والأحجار) محفوظة تحت رقم ٥١ طبيعيات تيمور، جاءت نسبته إلى الإمام الجيلاني على ورقة العنوان. وقد ظننا أول الأمر أن كلمتي (الجواهر والأحجار) إشارة إلى معنى صوفي معين، لكننا بمطالعة الكتاب وجدنا ذلك لا يتضمن أية إشارات! فهو كتاب في خواص الأحجار الكريمة، يقترب كثيراً من الكتاب الشهير لأحمد بن يوسف التيفاشي: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار.

وعادةً ما تنسب الفهارس هذا الكتاب للإمام الجيلاني بعناوين مختلفة، فنجده عند بروكلمان بعنوان (سر الأسرار ومعدن الأنوار)[١] وعند البستاني بعنوان (جواهر الأسرار ولطائف الأنوار)[٢] أمَا عمر رضا كحالة فقد ذكر هذا المؤلف بعنوان آخر هو (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار)[٣] وقد ذكر السامرائي أنه طُبع باللغتين العربية والأُردية في باكستان بعنوان: سر الأسرار في التصوف[٤].. وهي الطبعة التي لم نتمكّن من مطالعتها.

الفيوضات الربانية:

وهو كتابٌ مشهورٌ اعتادت بعض المراجع أن تنسبه للإمام الجيلاني،

---

(١) Gieschischte der Arabischen Literature II. p.779.

(٢) دائرة معارف البستاني ٦٢١/١١.

(٣) معجم المؤلفين ٢٠٧/٥.

(٤) الشيخ عبد القادر الكيلاني ص ١٦.

كما فعل ميزرا علي مُدّرس[1]؛ مع أن الكتاب مجموع لأورادٍ وقصائد ومناقب للإمام الجيلاني وغيره من أقطاب التصوف، قام بجمعه الشيخ إسماعيل بن محمد سعيد القادري. . وتوجد من هذا الكتاب الجامع عدة طبعات بالقاهرة وبيروت.

تفسير القرآن:

وهو مخطوطٌ في مجلدين أشارت عدة مصادر إلى وجود نسخة كاملة له في مكتبة رشيد كرامة مفتي طرابلس ـ مؤرخة بسنة ٦٢٢ هجرية ـ وأخرى ناقصة بالدائرة الهندية. . ولم يُشر الإمام الجيلاني في مؤلفاته الأخرى إلى هذا التفسير من قريبٍ أو بعيدٍ، ولم يُشر إليه أيضاً من ترجموا للإمام.

مراتب الوجود:

وهو واحد من المؤلفات التي نسبها البغدادي إلى الإمام الجيلاني[2]، والذي يبدو أن الأمر قد اختلط عليه لتشابه اسمي الإمام الجيلاني وعبد الكريم الجيلي، حيث أن الأخير هو مؤلف هذا الكتاب المعروف باسم: مراتب الوجود وحقيقة كل موجود.

* * *

وهناك عدة مؤلفات منسوبةٌ إلى الإمام الجيلاني، انفردت مصادر عديدة بإشاراتٍ مفردةٍ إليها، ومعظمها إما مخطوط أو مفقود. . ومن هذه المؤلفات:

- الكبريت الأحمر.
- جوهرة الكمال.
- مختصر في المعادن.
- جواهر الرحمن.

---

(١) ريحانة الأدب (تبريز) جلد بنجم ص ٢٥٣.

(٢) هدية العارفين ١/٥٩٦.

- دُرر المعاني[1].
- يواقيت الحكم.
- معراج لطيف المعاني.
- تُحفة المتقين وسبيل العارفين[2].
- المواهب الرحمانية.
- تنبيه الغبي إلى رؤية النبي.
- رَدُّ الرافضة[3].

وهذه المؤلفات، وغيرها مما ينسبه المفهرسون للإمام الجيلاني، تشير إلى مدى الاضطراب الواقع حول آثاره. وهو الاضطراب الذي كان سببه الأول: خراب مدرسة الإمام الجيلاني عدة مرات.. عند سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦ هجرية، وعند احتلال الصفويين لها بقيادة إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤ هجرية، وبقيادة عباس الصفوي بعد ذلك بسنوات، وعند غرق بغداد سنة ١٢٤٦ هجرية. ولولا ذلك، لظل تراث الإمام محفوظاً بمدرسته، ولكان تحديد مؤلفاته - بدقةٍ تامّةٍ - عملاً ميسوراً.

ترجمات الجيلاني:

لم تحظ شخصيةٌ صوفيةٌ في الإسلام، بمثل ما حظي به الإمام من اهتمام المؤرخين والمترجمين. فقد توقَّف عنده كل مؤرخٍ تعرَّض للمرحلة التي عاش فيها، وأورد عنه خبراً - قد يطول أو يقصر - مشفوعاً بتقديرٍ عميق.

وبالإضافة إلى ذلك، اهتمَّ بعضهم بالكتابة عن الإمام، من حيث كونه واحداً من الأقطاب الأربعة المُنتسبين لآل البيت[4]. وذلك ما نجده في (فرحة

---

(١) هذه المؤلفات، ذكرها بروكلمان. وقد أشار التادفي إلى كتاب (درر المعاني) على أنه مما جمعه ابن الجوزي من كلام الجيلاني.. راجع: قلائد الجواهر ص ٢١.

(٢) المؤلفات السابقة ذكرها البغدادي وحاجي خليفة.

(٣) المؤلفات السابقة ذكرها السامرائي.

(٤) هم: الرفاعي - الجيلاني - البدوي - الدسوقي.

الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب) للصيَّادي و(نشر المحاسن الغالية) لليافعي و(طبقات الشرنوبي). . وغير ذلك من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة.

وثمة مؤلفات أخرى، اختصَّت بالترجمة للجيلاني. فلما رأينا هذا القدر الوافر من هذه الترجمات المفردة، رأينا وجوب التوقُّف عندها، وحصر ما عرفناه منها[1]. . مع الإشارة إلى أن ثمة أمرين يجمعان بين هذه الترجمات جميعاً، أولها تقديرها البالغ للإمام الجيلاني، والثاني أنها لا تخلو من ذكر الكرامات. وهذه التراجم هي:

١ ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، للشطنوفي.

٢ ـ قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، للتادفي[2].

٣ ـ شمس المفاخر (ذيل قلائد الجواهر) للعلامة محمد بن محمد البخشي الحلبي الصوفي.

٤ ـ خلاصة المفاخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر، لابن أسعد اليافعي[3].

٥ ـ عقد جواهر المعاني في مناقب الشيخ الجيلاني، للشيخ أحمد بن عبد القادر. . جاء في خاتمته: هذا كتاب مرسوم بنزهة المناظر وبهجة الخاطر[4].

٦ ـ تحفة الأبرار ولوامع الأنوار في مناقب السيد عبد القادر وذريته الأكابر

---

(١) اعتمدنا في ذكر هذه القائمة الخاصة بتراجم الإمام، على ما رأيناه متفرقاً، وما أشارت إليه المصادر التي بين أيدينا. . بالإضافة إلى ما ذكره ناسخ الرسالة الغوثية في خاتمة نسخته (مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف) من المؤلفات والتراجم المفردة الخاصة بالإمام الجيلاني.

(٢) راجع المزيد عن هذين الكتابين ومؤلفيهما في مقدمة التحقيق النقدي لديوان عبد القادر الجيلاني.

(٣) توجد من هذا الكتاب مخطوطتان، الأولى بالإسكندرية (برقم ٧٦٥٩ ج، تصوف) والأخرى بالأزهر (برقم ١٢٠١، رواق المغاربة).

(٤) مخطوط الإسكندرية رقم ١٦٠٩ ب، تصوف) الورقة الأخيرة.

الأخيار، للسيد علاء الدين الجيلاني نقيب أشراف حُماة وشيخ الشيوخ في البلاد الشامية. . وفي هذا الكتاب ذكرٌ لأخبار الإمام الجيلاني وذريته إلى سنة ١١٠٠ هجرية، وتوجد منه نسخة بمكتبة عباس عزاوي الخاصة (برقم ٨٩٤٣) مجهولة المؤلف[١].

٧ ـ ضم الأزهار (ذيل تحفة الأبرار. .) لمفتي حُماة وشيخ السجادة القادرية، محمد سعدي الأزهري الجيلاني.

٨ ـ نزهة الخاطر الفاتر في ترجمة سيدي عبد القادر، لمُلاَّ علي بيه سلطان محمد القادري. . مخطوط[٢].

٩ ـ بستان الأصاغر والأكابر في ترجمة الشيخ عبد القادر، لشيخ قادرية تطوان: عبد الحي القادري المغربي. . مخطوط[٣].

١٠ ـ رياض البساتين في أخبار الشيخ عبد القادر محيي الدين، للشيخ محمد الأمين بن أحمد الكيلاني، فرغ منه سنة ١٢٦٣ هجرية. . مخطوط[٤].

١١ ـ الشجرة النورانية بطريقة القادرية، للشيخ عبد القادر القادري. . مخطوط[٥].

١٢ ـ الجَنْيُ الدَّانِي في نبذة من مناقب القطب عبد القادر الجيلاني، للعلامة جعفر بن حسن البَرْزنجي، مفتي الشافعية بالمدينة المنورة[٦].

١٣ ـ دُرُّ المفاخر في مناقب سيدي عبد القادر، للسيد عبد القادر العيدروسي اليمني.

---

(١) فهرس مخطوطات عباس عزاوي (مجلة المورد، مجلد ١٣، العدد الثالث، ص ٢٨٩).
(٢) انظر: مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف.
(٣) الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي (مقالة بمجلة صوت الحق ـ وزارة الأوقاف بالمغرب) ٥٠، ٥١.
(٤) معجم المؤلفين ٦٩/٩، ٧٠.
(٥) توجد له نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٢٧٨ مجاميع (رصيد عام).
(٦) انظر: مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج تصوف.

١٤ ـ درر الجواهر في مناقب سيدي عبد القادر، للشيخ المحدِّث الحافظ، سراج الدين عمر أبي حفص الأنصاري الشافعي.

١٥ ـ أنوار الناظر في معرفة أخبار الشيخ عبد القادر، للشيخ الإمام أبي بكر عبد الله بن نصر حمزة البكري الصدِّيقي البغدادي(١).

١٦ ـ نزهة الناظر في أخبار الشيخ عبد القادر، للفقيه المحدِّث أبي محمد عبد اللطيف بن هبة الله الهاشمي البغدادي النَّرْسي.. وهو ممَنْ روى عنهم صاحب البهجة(٢).

١٧ ـ غِبْطة الناظر في أخبار سيدنا عبد القادر، لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني.

١٨ ـ روض الزاهر في ترجمة السيد عبد القادر، لابن حجر العسقلاني.

١٩ ـ روضة الناظر في ترجمة سيدنا الغوث عبد القادر، للعلامة الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط.

٢٠ ـ روض النواظر في مناقب سيدي عبد القادر، للإمام الزاهد الأورع، محمد بن سعيد بن ذريع الزِّنْجاري.

٢١ ـ مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، للشيخ عبد الرحمن الطالباني.

٢٢ ـ مناقب الشيخ عبد القادر، لقطب الدين اليونيني(٣).

٢٣ ـ مناقب سيدي عبد القادر، لمؤلف مجهول(٤).

٢٤ ـ فضائل عبد القادر الجيلاني، لمؤلف مجهول(٥).

٢٥ ـ السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، للعلامة

---

(١) انظر: بهجة الأسرار ص ١٠٩.

(٢) مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف.

(٣) هذا الكتاب وسابقه، مذكوران بقائمة المؤلفات التي تبحث في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد.

(٤) توجد منه نسخة خطية بالمعهد الأحمدي بطنطا (برقم ٢١٦/٦٨٣) وهي ناقصة من أولها، مكتوبة بخط جميل مشكول، مؤرخة بثامن عشر شعبان سنة ١٠٠٥ هجرية.

(٥) توجد منه نسخة خطية بالمعهد الأحمدي (برقم ٢١٦/٦٨٤) حالتها سيئة، كتبت بتاريخ ١٢٦٩ هجرية.

محمد المكي بن مصطفى بن عزوز[1].

٢٦ ـ الإمام عبد القادر الجيلاني، لأبي الحسن النووي[2].

٢٧ ـ الشيخ عبد القادر الكيلاني، للشيخ يونس السامرائي[3].

٢٨ ـ الشيخ عبد القادر الكيلاني، للشيخ عبد الغفار العباسي[4].

وبالإضافة إلى هذه الترجمات المفردة للإمام الجيلاني ـ التي لا ندعي أننا حصرناها جميعاً ـ هناك بعض القصائد المطولة في مدحه، ورد بعضها في (سفينة القادرية). ولعل أشهر هذه القصائد، القصيدة المطوَّلة المعروفة بعنوان (قصيدة الباز الأشهب) لعبد الباقي العمري، والتي فرغ منها سنة ١٢٥٥ هجرية ـ ويوجد عليها شرح لشهاب الدين الألوسي بعنوان (الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب) وهو مخطوط برقم ٩٠٩١ بمكتبة عباس عزاوي[5].

---

(١) طبع هذا الكتاب بتونس سنة ١٣١٠ هجرية.

(٢) طبع هذا الكتاب بالقاهرة ـ دار المختار الإسلامي ١٩٧٤.

(٣) طبع ببغداد (مطبعة الأمة) عدة طبعات.

(٤) طبع ببغداد (على نفقة مؤلفه) بدون تاريخ.

(٥) فهرس مخطوطات عباس عزاوي (مجلة المورد، المجلد ١٥، العدد الثالث)، ص ١٨٩.

وفاة الإمام الجيلاني

يبدأ ابن العماد الحنبلي تأريخه لسنة ٥٦١ هجرية، بعبارةٍ افتتاحية تقول: «فِيهَا ظَهَرَ بِبَغْدَادَ ٱلرَّفْضُ وٱلسَّبُّ وعَظُمَ ٱلخَطْبُ. .»[١] وفي هذه السنة، توفي الإمام الجيلاني؛ بعد أن بلغ من العمر واحداً وتسعين عاماً. وقد جمع بعضهم سنوات ولادته ووفاته وعمره، في بيتٍ شعريٍّ واحدٍ، يقول:

إنَّ بَازَ ٱللَّهِ سُلْطَانُ ٱلرِّجَالِ ... جَاءَ فِي عِشْقٍ وَمَاتَ فِي كَمَالِ

وذلك لأن كلمة (عشق) عددها بحساب الجُمَّل[٢] = ٤٧٠، وهو تاريخ مولد الإمام. وكلمة (كمال) عددها = ٩١، وهو عدد سنوات العمر. والكلمتان معاً، حاصل عددهما ٥٦١ وهو تاريخ الوفاة[٣].

وكانت وفاة الإمام: بعد عتمة ليلة السبت، عاشر ربيع الآخر[٤].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ١٩٧/٤.

(٢) حساب الجُمَّل: هو إعطاء كل حرفٍ عدداً معيناً من الأرقام، بحسب التسلسُل. وهو من المعارف التي انتشرت بين الصوفية بعد القرن السادس الهجري.

(٣) قلائد الجواهر ص ١٧٣ ـ فتوح الغيب ص ١٨٠؛ وانظر الترجمة الفارسية لهذا البيت الشعري في: ريحانة الأدب، جلد بنجم ص ٢٥٤.

(٤) فتوح الغيب ص ١٧٨.

وكان قد مرض قبل ذلك بعدة أيام، حتى كانت هذه الليلة التي اجتمع فيها أولاده من حوله، ليستمعوا آخر أقواله وهو على أعتاب لقاء الحق.. فقال:

أَنَا لُبٌّ بِلَا قِشْرٍ..
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلخَلْقِ،
بُعْدُ مَا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ
فَلَا تَقِيسُونِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا تَقِيسُوا أَحَداً عَلَيَّ.

وحين سأله ولده عبد العزيز عن مرضه، قال:

لَا يَسْأَلْنِي أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ
أَنَا أَتَقَلَّبُ فِي عِلْمِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
إِنَّ مَرَضِي لَا يَعْلَمَهُ أَحَدٌ، وَلَا يَعْقِلَهُ إِنْسٌ وَلَا جِنٌّ وَلَا مَلَكٌ،
مَا يَنْقَضِي عِلْمُ ٱللَّهِ بِحُكْمِ ٱللَّهِ!
ٱلحُكْمُ يَتَغَيَّرُ وَٱلعِلْمُ لَا يَتَغَيَّرُ
يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلكِتَابِ.

* * *

وفاضت روح الجيلاني، وطار باز الله الأشهب في رحلته الأخيرة، وودَّع الدُّنيا إلى العُليا.. لكن ذكره بقي في الأرض إلى يومنا هذا.

.. ترك الإمام تسعةً وأربعين من الأبناء (منهم سبعة وعشرون ذكوراً، والباقي إناث) كما ترك عشرات المريدين الصادقين. فعمل الأبناء والمريدون على إحياء ذكره، واستمرت (الطريقة القادرية) مئات الأعوام، وسارت ـ معظم الوقت ـ على القواعد التي رسمها مؤسسها، وتدفقت بين ربوع العالم الإسلامي؛ حتى صارت اليوم: أوسع الطرق الصوفية انتشاراً في العالم الإسلامي.

وإذا كنا فيما سبق قد حاولنا تقديم لوحة حياة الإمام الجيـلاني، وتتبَّعنا المنحنيات الروحية في حياته وتجربته الصوفيـة. فإننـا سنعود في بحثٍ آخـر، لنتناول الأُسس العامة للطريق الصوفي عند عبد القـادر الجيلاني، ونستعـرض انتشار طريقته وفروعها بمصر.

مراجع البحث

١ ـ إبراهيم حلمي القادري: **القرب في محبة العرب** (طبعة الإسكندرية ١٩٦٠).

٢ ـ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** (تحقيق نزار رضا ـ بيروت).

٣ ـ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** (المطبعة التجارية الكبرى ـ القاهرة).

٤ ـ ابن تَيْمية: **مجموعة الرسائل والمسائل** (دار الكتب العلمية ـ بيروت).

٥ ـ ابن تَيْمية: **شرح كلمات من فتوح الغيب** (ضمن: جامع الرسائل، تحقيق د. محمد رشاد سالم ـ مطبعة المدني، جدة).

٦ ـ ابن تَيْمية: **رسالة في المعجزات والكرامات وخوارق العادات** (تحقيق محمود بن إمام ـ مكتبة الصحابة بطنطا ١٤٠٦ هـ).

٧ ـ ابن تَغْري بَرْدي: **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٤).

٨ ـ ابن جِنّي: **الخصائص** (تحقيق محمد علي النجار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة).

٩ ـ ابن الجَوْزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** (حيدرآباد ١٣٥٨ هـ).

١٠ ـ ابن حَجَر: **تبصير المنتبه بتحرير المشتبه** (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
١١ ـ ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** (القاهرة ١٢٧٥ هـ).
١٢ ـ ابن عَرَبي: **الفتوحات المكية** (طبعة دار الكتب العربية ـ القاهرة، الطبعة الكاملة، بدون تحقيق).
١٣ ـ ابن عَرَبي: **الفتوحات المكية** (الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق د. عثمان يحيى).
١٤ ـ ابن عَطَاء الله: **الحكم العطائية بشرح الشيخ زَرُّوق** (طبعة دار الشعب ١٤٠٥ هـ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ـ د. محمود بن الشريف).
١٥ ـ ابن العِمَاد: **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب** (مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ).
١٦ ـ ابن عِنَبة: **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب** (طبعة النجف).
١٧ ـ أبو رَيَّان: **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام** (دار الكتب الجامعية ١٩٨٥).
١٨ ـ أبو العِلا عفيفي (دكتور): **الملامتية والصوفية وأهل الفتوة** (مطبوعات الجمعية الفلسفية المصرية ١٩٤٨).
١٩ ـ أبو نعيم الأَصْبهاني: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** (دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة).
٢٠ ـ البِرِيفكاني (نور الدين): **شرح حِكَم ابن عطاء الله، المسمى تلخيص الحِكَم** (الناشر العربي ١٩٨٣، تحقيق محمد الكزني).
٢١ ـ البُسْتاني: **دائرة معارف البستاني** (دار المعرفة ـ بيروت).
٢٢ ـ البيروني (أبو الريحان): **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** (عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الثانية).
٢٣ ـ التادفي: **قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر** (المطبعة العثمانية ١٣٠٣ هـ).

٢٤ ـ التَفْتَازَاني (دكتور): **مدخل إلى التصوف الإسلامي** (دار الثقافة ١٩٨٣).

٢٥ ـ التهانوي: **كشاف اصطلاحات الفنون** (دار قهرمان ـ إسطمبول).

٢٦ ـ جعفر صادق سهيل: **عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي** (رسالة ماجستير بإشراف د. محمد كمال جعفر ـ جامعة القاهرة).

٢٧ ـ جلال الدين الرُّومي: **المثنوي**، ترجمة د. محمد كفافي (المكتبة العصرية، بيروت).

٢٨ ـ الجِيلاني (الإمام عبد القادر): **الغنية لطالبي طريق الحق**، تحقيق فرج توفيق الوليد (مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨).

٢٩ ـ الجِيلاني: **فتوح الغيب** (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ـ الطبعة الثانية).

٣٠ ـ الجِيلاني: **الفتح الرباني** (البابي الحلبي ـ الطبعة الأخيرة).

٣١ ـ الجِيلاني: **ديوان عبد القادر الجيلاني**، تحقيق د. يوسف زيدان (مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة).

٣٢ ـ الجِيلاني: **جلاء الخاطر في الظاهر والباطن** (مخطوط جامعة القاهرة، رقم ١٥٧٤١/ تصوف).

٣٣ ـ الجِيلاني: **حزب التضرع والابتهال** (مخطوط جامعة القاهرة، رقم ١٥٦٨٧/ تصوف).

٣٤ ـ الجِيلاني: **حزب السريانية** (مخطوط مكتبة مسجد أبي العباس، رقم ١٠٥٦/عام).

٣٥ ـ الحلَّاج: **أخبار الحلَّاج**، نشرة ماسينون وكراوس (باريس ١٩٣٦).

٣٦ ـ الخَوَانْسَاري: **رَوْضات الجنَّات في أخبار العلماء السادات**، تحقيق أسد الله إسماعيليان (تهران ١٣٩٢ هـ).

٣٧ ـ الذَّهبي: **سِيَر أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١ هـ).

٣٨ ـ الدُّميري: **حياة الحيوان الكبرى** (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

٣٩ ـ السامرائي (يونس): **الشيخ عبد القادر الكيلاني** (مطبعة الأمة ـ بغداد، الطبعة الثالثة).

٤٠ ـ سِبْط ابن الجَوْزي: **مِرآة الجَنَان وعبرة اليقظان** (القاهرة، بدون تاريخ).

٤١ ـ السُّلَمي (أبو عبد الرحمن): **طبقات الصوفية**، بعناية أحمد الشرباصي (دار الشعب ١٣٨٠).

٤٢ ـ السُّهروردي: **عَوَارف المعارف**، المجلد الخامس من إحياء علوم الدين (دار الندوة الجديدة، بيروت).

٤٣ ـ الشَّطنوفي: **بَهْجة الأسرار ومَعْدن الأنوار** (دار الكتب العربية، القاهرة ١٣٣٠).

٤٤ ـ الشِّيبي (د. كامل): **الصِّلة بين التصوف والتشيُّع** (دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية).

٤٥ ـ طاش كبري زاده: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** (حيدرآباد ـ الهند).

٤٦ ـ الغزالي (الإمام أبو حامد): **إحياء علوم الدين** (دار الندوة الجديدة، بيروت).

٤٧ ـ القُشيري: **الرسالة القشيرية** (البابي الحلبي ١٣٧٩ هـ).

٤٨ ـ الكَلَاباذي: **التعرُّف لمذهب أهل التصوف**، تحقيق د. محمود النواوي (مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية).

٤٩ ـ محمد المَنَلا: **الصلات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى** (ضمن كتاب: السفينة القادرية).

٥٠ ـ ماك دونالد: **مادة (حزب) بدائرة المعارف الإسلامية**. . الترجمة العربية (دار الشعب).

٥١ ـ مؤلف مجهول: **ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأولاده** (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٠٥٤٥ ب).

٥٢ ـ مؤلف مجهول: كتاب المناقب (مخطوط المعهد الأحمدي بطنطا، رقم ٦/٦٨٣).
٥٣ ـ ميرزا علي مدّرس: ريحانة الأدب في تراجمه المعروفين بالكنية واللقب (تبريز ـ چنچانة سفق).
٥٤ ـ النّابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (مخطوط مصور بعناية د. أحمد الهريدي، مصر).
٥٥ ـ النَبهاني (علي بن يوسف): جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ).
٥٦ ـ النَّشّار (د. علي سامي): نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثامنة).
٥٧ ـ النَّوَوي (يحيى بن شرف): بستان العارفين، تحقيق محمد الحَجَّار (دار الصابوني ـ دمشق، بدون تاريخ).
٥٨ ـ الهَجْويري: كشف المحجوب، ترجمة د. إسعاد قنديل (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٤ هـ).
٥٩ ـ الهروي الأنصاري: منازل السائرين (البابي الحلبي ١٩٦٩).
٦٠ ـ اليافعي: خلاصة المفاخر في ترجمة الشيخ عبد القادر (مخطوط الأزهر، رقم ١٢٠١).
٦١ ـ اليافعي: نَشْر المحاسن الغالية في فضل الصوفية ذوي المقامات العالية (البابي الحلبي ١٣٨١ هـ).
٦٢ ـ يوسف زيدان (دكتور): شعراء الصوفية المجهولون (مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩١).
٦٣ ـ يوسف زيدان: الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر (دار الجيل ـ بيروت).
٦٤ ـ براون: Brawen: **Art (Al-Djilani) in, The Encyclopedia of Islam**
٦٥ ـ بروكلمان: Brokelman: **Geschischte der Arabischen Literature** (Leiden 1937).

الـفهـرس

أعمال الدكتور يوسف زيدان

أولًا: المؤلفات

- عبد الكريم الجدلي، فيلسوف الصوفية
- الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
- عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب (دار الجيل - بيروت)
- الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت)
- شعراء الصوفية المجهولون

ثانياً: الدراسة والتحقيق

- المقدمة في التصوف، لأبي عبد الرحمن السُّلَمي
- قصيدة النادرات العينية، لعبد الكريم الجيلي - مع شرح النابلسي (دار الجيل - بيروت)
- ديوان عبد القادر الجيلاني
- ديوان عفيف الدين التلمساني
- شرح فصول أبقراط، لابن النفيس

ـ رسالة الأعضاء، لابن النفيس

ـ المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس

ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس

ثالثاً: تحت الطبع

ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق)

ـ الكهف والرقيم، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق)

ـ شخصية الخضر في التراث الإسلامي (تأليف)

ـ شرح كليات القانون، لابن النفيس (دراسة وتحقيق)

ـ الوريقات في المنطق، لابن النفيس (دراسة وتحقيق)

ـ معجم مصطلحات ابن النفيس الطبية (دراسة وتحقيق)